وجه الشّبه واضحٌ بين صدر الآية الكريمة هنا : ﴿فلمّا جهّزهم بجهازهم﴾ وبين صدر الآية الكريمة التّاسعة والخمسين المتعلّقة برحلة الإخوة الأولى إلى مصر. قال تعالى : ﴿ولمّا جهّزهم بجهازهم﴾ ومن البيّن أنّ الآية الكريمة التى نحن بصددها تبدأ بالفاء، وأنّ الآية الكريمة هنالك تبدأ بالواو. ومن المعروف أنّ الفاء العاطفة تفيد التّرتيب مع التّعقيب، وأنّ ما بعدها مسبَّب عمّا قبلها الّذى هو السّبب. فكأنّ الفاء تنبّه إلى الغاية أو الهدف. وكأنّ الحصول على الجهاز بمعنى الطّعام الموضوع على الرّحال هو الغاية لمجيء الإخوة من الشّام وهو الهدف. وبشأن الرّحلة الأولى السّابقة كانت الفاء من نصيب عمليّة الدّخول على يوسف عليه السّلام عزيز مصر. وكأنّ الإخوة الذّين يجيئون إلى مصر للمّرة الأولى هم على علم بأنّ أهمّ حلقةٍ فى سلسلة الأعمال ألّتى يقومون بها من أجل الحصول على الطّعام هي عمليّة الدّخول على يوسف عليه السّلام عزيز مصر الّذى جعله ملكها على خزائن أرضها، والّذى كان مثال الحفيظ العليم لذا كان عليه السّلام هو المسئول الّذى يباشر شخصيّاً عمليّة بيع الطّعام وتوزيعه.

إنّ الإخوة فى الرّحلة الثّانية قد حدّدوا الهدف وهو أن يُجَهَّزوا بجهازهم وأن يُمْنحوا الطّعام. ودليلاً على هذا الهدف الّذى حدّده الإخوة مستفيدين من التّجربة فى الرّحلة السّابقة دخلت الفاء هنا على أوّل الآية الكريمة وصدرها الّذى يتحدّث عن التّزويد بالطّعام. قال تعالى : ﴿فلمّا جهّزهم بجهازهم﴾ والله تعالى أعلم.

وكما دلّت الفاء هنا على الغاية دلّت وراء ذلك على أنّ المسبَّب بعدها سببٌ لما بعده. قال تعالى : ﴿فلمّا جهزهم بجهازهم جعل السّقاية فى رحل أخيه﴾ إنّ يوسف عليه السّلام بعد أن جهّز الإخوة الأحد عشر بجهازهم، وزوّدهم بالطّعام، وملأ رحالهم بالميرة، جعل السّقاية فى رحل أخيه لأبيه وأمّه بنيامين. والسّقاية هي صواع الملك الّذى سوف ينص عليه السّياق. وحينما تكون السّقاية الإناء الّذى يُشْرَب فيه، وحينما يكون هذا الإناء الّذى يُكال به الطعام هو الّذى يشرب فيه الملك فذلك معناه أنّ هذه السّقاية إناءٌ غايةٌ فى الأهمّيّة والخطورة. ويصحّ أن تكون منزلة السّقاية مستمدّة من كونها عُمِلَتْ من أجل القيام بوظيفتين مهمّتين. أمّا الوظيفة الأولى فهي كون السّقايةِ الإناءَ الّذى يشرب فيه الملك. ويغلب على الظّنّ أن تكون السّقاية قد صيغت من معدنٍ نفيس. وأمّا الوظيفة الأخرى فهي كيل الحبوب بهذه السّقاية أو الصّواع، ويقال له الصّاع[1]. وليس

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «صاع» ٢٩٠ .

بأيّ آلةٍ أخرى أو وسيلةٍ أخرى. وليس من الغريب أن تنال السّقاية هذه العناية لأنّها الآلة الوحيدة الّتى يكيل بها يوسف عليه السلام الطّعام. وقد عرفنا أنّ يوسف عليه السّلام هو الّذى يباشر عمليّة كيل الحبوب بذاته الشّريفة كي يصل الطّعام إلى المستحقّين على جهة العدل.

إنّ هذه السّقاية الغالية القيمة قد تمّ الاتّفاق سرّاً بين يوسف عليه السّلام وبين شقيقه بنيامين على أن يضعها الفتيان والغلمان فى رحل بنيامين وأن يؤذّن بعد ذلك مؤذّن ويصيح فى القافلة الّتى فصلت وفيها الإخوة الأحد عشر صائحٌ بأنّهم لسارقون. وإنّما فعل يوسف عليه السّلام ذلك من أجل استبقاء شقيقه عنده فى مصر. ولا يخفى وجه الشّبه بين وضع يوسف عليه السّلام بضاعة الإخوة الّتى دفعوها فى الرّحلة الأولى ثمناً للطّعام فى رحال الإخوة، وبين وضع يوسف عليه السّلام فى هذه الرّحلة الثّانية السّقاية أو صواع الملك فى رحل أخيه لأبيه وأمّه للغاية الّتى إليها أومأنا. إنّ وضع البضاعة فى المرّة الأولى فى رحال جميع الإخوة. وإنّ وضع السّقاية فى هذه المرّة فى رحل بنيامين وحده لتغاير الهدفين من العمليّتين.

لقد فصلت العير، وغادرت القافلة : ﴿ثمّ أذّن مؤذّن أيّتها العير إنّكم لسارقون﴾ على نحو المتّفق عليه بين الأخوين. وينبغى أن يكون لحرف العطف : «ثمّ» الّذى يدلّ على التّرتيب مع التّراخى قدرةٌ على الإيماء إلى الاتّفاق الّذى تمّ بين الشّقيقين بأن يؤذّن المؤذّن ويعلن المنادى عن سرقة الصّواع بعد أن تكون القافلة قد ابتعدت قليلا عن مكان الانطلاق واستنفدت بعضاً من الوقت يتمّ فى أثنائه اكتشاف ضياع السّقاية وفقد صواع الملك.

قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾

لقد كان نداء المنادى للقافلة الّتى يُعْتَقَدُ أنّ الإخوة الأحد عشر يشكّلون أكبر مجموعةٍ تنتمى إلى أسرةٍ واحدةٍ فيها قد أزعج الإخوة العشرة على جهة الخصوص. وينبغى أن يكون بنيامين قد تظاهر هو الآخر بالانزعاج. ولم يملك الإخوة لمجرّد اتّهام القافلة بالسّرقة إلّا أن يندفعوا تجاه المنادى صارخين فى ذات الوقت فى المنادى وفى الباحثين عن الصّواع قائلين : ﴿ماذا تفقدون﴾؟

قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾

صواع الملك : صاعه الّذى يكيل به[١] كان إناءً يشرب به ويكال به. ويقال له الصّاع، ويذكّر ويؤنّث. قال تعالى : ﴿نفقد صواع الملك﴾ ثم قال : ﴿ثمّ استخرجها﴾[٢] وتسميته الصّواع تنبيهاً أنّه يكال به، وتسميته السّقاية تنبيهاً أنّه يُسْقَى به[٣].

وأنا به زعيم : وأنا به كفيل[٤].

قال المكلّفون بالبحث عن السّقاية الّتى جعلها الفتيان فى رحل بنيامين بأمر يوسف عليه السّلام وأجابوا الإخوة السّائلين عن الشّىء المفقود : ﴿نفقد صواع الملك﴾ وهو الصّاع الثّمين الّذى قرّر الملك ألاّ يكال الطّعام إلاّ به توخّياً للعدالة، والّذى كان الملك يتناول فيه الشّراب. ولهذا كان الصواع ثميناً ينبغى البحث عنه بجدٍّ واجتهاد ووضع المغريات مكافأةً لمن يجىء به. وكان الإغراء بِحِمْل بعيرٍ من الحبوب الّتى اشتدّت الحاجة إليها فى تلك الأثناء. وهكذا يثبت معجم الحبوب وجوده.

ولا يُكْتَفَى بالإغراء بالطّعام إنّما يكون من المؤذّن إعلانٌ بأنّه كفيلٌ بدفع حمل البعير من الطّعام لمن يجىء بالصّواع. وذلك دليلٌ على نفاسة الصّواع.

قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾

قالوا تالله : يعنى والله. وهذه التّاء فى تالله إنّما هي واو قلبت تاء. وإنّما جعلت تاءً لكثرة ماجرى على ألسن العرب فى الأيمان فى قولهم : والله. فخصّت فى هذه الكلمة بأن قلبت تاء. ومن قال ذلك فى اسم الله فقال : تالله لم يقل تالرّحمن وتالرّحيم ولا مع شيءٍ من أسماء الله ولا مع شيءٍ ممّا يُقسم به. ولا يقال ذلك إلا فى تالله وحده[٥] وتالله قَسَمٌ فيه معنى التّعجّب[٦].

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٤٨٥ .

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «صاع» ٢٩٠ .

(٣) انظر مفردات الرّاغب الأصفهاني : «سقى» ٢٣٦ .

(٤) تفسير الطّبري ١٣/١٤ .

(٥) تفسير الطّبري ١٣/١٤ .

(٦) الجلالين .

كان اتّهام القافلة الّتى يمثّل أبناء يعقوب عليه السّلام عمودها الفِقَرىّ غايةً فى الإزعاج والإساءة للإخوة العشرة الّذين لا يعلمون الاتّفاق بين الشّقيقين حول مسألة الصّواع، والّذين وضعوا يوسف عليه السّلام فى غيابة الجبّ، وعاملوا بنيامين شقيقه أسوأ معاملة. لقد كان ردّ الفعل عند الإخوة متمثّلاً فى القَسَم الّذى يفيد التّعجّب مِنْ ظنّ بعض النّاس أنّ أحداً من أبناء يعقوب عليه السّلام يتورّط فى عمليّة السّرقة، خاصّةً وقد علم النّاس من رحلة الإخوة الأولى إلى مصر أنّهم ما جاءوا ليفسدوا فى أرض مصر وماكانوا يوماً من الأيّام سارقين.

قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ
مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ
﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن
وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ
فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ
وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾

بين يدي حديثنا عن الآيات الكريمات نودّ أن نتحدّث عن جزاء السّارق فى كلٍّ من دين ملك مصر، أي فى حكمه وقضائه[1] وشريعة ابراهيم عليه السّلام أبى الأنبياء. إنّ جزاء السّارق فى الحكم المصريّ الوضعىّ آنذاك أن يضاعف عليه الغُرْم، وأن يؤخذ منه مثْلا المسروق[2] وأن يُضْرَب[3] أمّا جزاء السّارق فى الشّريعة الإبراهيميّة فهو أن يؤخذ السّارق بسرقته عبداً يُسْتَرَقّ[4] وحدّد بعضهم فترة الاسترقاق بعامٍ واحد[5].

---

(١) تفسير الطّبري ١٣/١٧.
(٢) تفسير الطّبري ١٣/١٧.
(٣) الجلالين.
(٤) تفسير الطّبري ١٣/١٨.
(٥) انظر مثلاً الكشّاف ٢/١٤٨.

ومن البيّن أنّ يوسف عليه السّلام إنّما أراد بالاتّفاق مع بنيامين على وضع الصّواع فى رحله أن يستبقيه معه فى مصر، ولم يكن القانون الوضعيّ المصريّ يسمح باستبقاء السّارق أو استرقاقه، ثمّ إنّ العادة جرت بأن تطبّق كلّ دولةٍ الحكم الّذى ارتضته داخل حدودها. وبناءً على ذلك فليس فى استطاعة أيّ حاكم أن يطبّق فى بلده إلاّ حكمه، وبالتالى ليس فى استطاعة يوسف عليه السّلام أن يطبّق حكم السّارق فى الشّريعة الإبراهيميّة إلاّ فى حالةٍ واحدة، هي أن يرضى الإخوة بتطبيق حكم الشّريعة الإبراهيميّة فيما لو فرض أنّ السّرقة ثبتت فى حقّ أيٍّ منهم.

وكيف يرضي الإخوة بتطبيق حكم الشّريعة الإبراهيميّة فى حقّ السّارق لو فُرِض أنّه واحدٌ منهم؟ إنهم يرضون فى حالةٍ واحدة. أن يُسْألوا، وهم فى قمّة الثّقة ببراءتهم من تهمة السّرقة وذلك قبل أن تُفتّش رحالهم، عن نوع الحكم الّذى يرتضون أن يطبّق فى حقّهم؟ أهو حكم البلاد الوضعيّ البشريّ الّذى يكتفى بالأخذ من السّارق مثلي ما سرق، أم حكم الشّريعة الإبراهيميّة الّذي يقضى باسترقاق السّارق مدّة عامٍ واحدٍ فى رأى بعضهم. ومن الطّبيعيّ فى حال طرح مثل سؤال الاختيار هذا على أبناء نبيّ الله تعالى يعقوب بن إسحاق بن ابراهيم عليهم السّلام أن يختاروا الحكم فى الشّريعة الإبراهيميّة.

إنّ كلّ شيءٍ يستطيع يوسف عليه السّلام أن يفعله من ذات نفسه وباجتهاده باستثناء سؤال الإخوة عن نوع الحكم الّذى يرغبون تطبيقه فى حقّ السّارق، وهذا السّؤال حجر الزّاوية فى المسألة، وبدون طرحه والتزام الإخوة بالحكم فى الشّريعة الإبراهيميّة لا قيمة لكلّ الأمور الأخرى، لأنّ الإخوة لو لم يلتزموا بهذا الحكم وثبت ظاهر السّرقة على بنيامين من حقّهم أن يرفضوا تطبيق أيّ حكمٍ غير الحكم الوضعيّ المصريّ الّذى لا يحقّق الهدف الّذى رمى إليه يوسف عليه السّلام من اتّفاقه مع شقيقه بوضع الصّواع فى رحله واتّهام القافلة بالسرقة.

إنّ سؤال الإخوة عن نوع الحكم الّذى يرغبون تطبيقه فى حال ثبوت السّرقة مستقبلاً فى حقّهم والّذى قام يوسف عليه السّلام بطرحه على الإخوة إنّما كان بإلهامٍ من الله تعالى ليوسف عليه السّلام وإيحاء، وهو ما عبّر عنه بالكيد، والكيد بمعنى النّوع من الاحتيال،[1] وذلك فى قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿كذلك كدنا ليوسف. ما كان ليأخذ

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهاني: «كيد» ٤٤٣.

أخاه فى دين الملك إلاّ أن يشاء الله﴾

وهذا هو معنى الآيات الكريمات، والله تعالى أعلم.

معنى الآية الكريمة الأولى : قال المكلّفون بالبحث عن الصّواع للإخوة : فما جزاء السّارق إن كنتم كاذبين فى نفي السّرقة عنكم وثبت أنّكم أنتم السّارقون.

وفى الآية الكريمة التّالية جواب الإخوة على السؤال عن جزاء السّارق. إنّ معنى الآية الكريمة، والله تعالى أعلم، قال الإخوة : جزاء السّارق هو مَنْ وُجِد الصّواع فى رحله بأن يُسْترقّ هو دون سواه، فهو نفسه جزاؤه دون غيره، واسترقاقه عقابه. كذلك نجزى نحن فى الشّريعة الإبراهيميّة الظّالمين أنفسهم والآخرين بارتكاب جريمة السّرقة[1].

والآية الكريمة الثّالثة تقرّر أنّ يوسف عليه السّلام بدأ بأوعية إخوته يفتّشها قبل وعاء أخيه. وقد استغرقت هذه العمليّة شيئاً من المجهود وبعضاً من الوقت. وإنّما بدأ بأوعية الإخوة كي يبدو التّفتيش طبيعيّاً. ثمّ استخرج يوسف عليه السّلام السّقاية من رحل أخيه فكانت الطّامّة الكبرى على الإخوة والبليّة العظمى، فقد ثبت ظاهر السّرقة على بنيامين، بدليل أنّه لم ينف التّهمة عن نفسه، وذلك معناه استرقاق العزيز له وعدم رجوع الإخوة به إلى أبيهم يعقوب عليه السّلام.

وتشير الآية الكريمة إلى إلهام الله تعالى يوسف عليه السّلام أن يسأل إخوته عن نوع الحكم الّذى يودّون تطبيقه إن ثبتت السّرقة فى حقّهم : ﴿كذلك كدنا ليوسف﴾ كما تقرّر أنّ يوسف عليه السّلام ما كان ليأخذ أخاه بنيامين فى دين الملك وحكمه الوضعيّ الّذى يكتفى بالأخذ من السّارق مثلي ما سرق إلاّ أن يشاء الله تعالى ليوسف عليه السّلام أخذ شقيقه فكان الإلهام من الله تعالى ليوسف عليه السّلام أن يسأل إخوته عن نوع الحكم الّذى يريدون وبذلك أمكن استبقاء بنيامين واسترقاقه على نحو ما تقضى الشّريعة الإبراهيميّة فى حقّ السّارق.

وتقرّر الآية الكريمة أنّ الله سبحانه وتعالى يرفع درجاتٍ من يشاء الله تعالى رفعه، وأنّ فوق كلّ ذى علمٍ من البشر عليماً هو الله تعالى الّذى أحاط بكلّ شيءٍ علماً.

ونودّ أن نشير إلى الحكم فى الشّريعة الإسلاميّة والحنيفيّة السّمحة الّتى بعث الله تعالى بها محمّد بن عبدالله ﷺ، أشرف المرسلين وخاتم النّبيّين. إنّه قطع يد السّارق والسّارقة. قال عزّ من قائل[2] : ﴿والسّارق والسّارقة فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا نكالاً من الله. والله عزيزٌ حكيم﴾.

---

(١) انظر مثلاً الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٧/٢٨.

(٢) سورة المائدة ٣٨.

قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾

تجاه ثبوت ظاهر السّرقة على بنيامين لم يملك الإخوة سوى أن يتذكّروا شقيقه السّبب الحقيقيّ وراء كلّ تلك السّلاسل من المناسبات السّيّئة فى نظرهم والذّكريات الأليمة. ولم يجد الإخوة ما يشفى غليلهم سوى الفرار إلى حادثةٍ تتعلّق بيوسف عليه السّلام لها من حيث الشّكل والجوهر ما للحادثة المتعلّقة ببنيامين. إنّ الحادثة المتعلّقة ببنيامين لها شكل السّرقة ولكنّها فى الجوهر ليست سرقةً كما عرفنا. وإنّ الحادثة المتعلّقة بيوسف عليه السّلام حينما كان صغيراً عبارةٌ عن أخذ يوسف عليه السّلام صنماً فكسْرِه. وهذا الصّنم فيما يقال لجدّه أبى أمّه[1] وهل أخذ صنم وكسرُه وإلقاؤه على الطّريق سِرقةٌ أم أنّه عملٌ حميدٌ يُشْكر عليه الغلام الّذى أُشْبِعت نفسه من تعاليم الإسلام فى بيت نبيّ الله تعالى يعقوب عليه السّلام. إنّه عملٌ حميد ولكنّ الإخوة جعلوا عمل يوسف وهو طفل من جنس ظاهر السّرقة الثّابتة فى حقّ بنيامين. ولم يملك يوسف عليه السّلام سوى أنِ يُسِرّ الكلمة الّتى يستحقّها الإخوة العشرة وبالتّالى لم يظهرها لهم وهذه الكلمة هي القول فى نفسه : أنتم شرٌ مكاناً وأسوأ مقاماً. والله تعالى أعلم بما تصفون وتذكرون من كذب. جاء فى سورة النحل[2] قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلالٌ وهذا حرامٌ لتفتروا على الله الكذب. إنّ الّذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون﴾ وقوله تعالى[3] : ﴿ويجعلون لله ما يكرهون وتصف ألسنتهم الكذب أنّ لهم الحُسْنى. لا جرم أنّ لهم النّار وأنّهم مُفْرَطون﴾.

قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٧٨﴾

بقدر ذهاب الإخوة بعيداً فى انفعالهم وشططهم فى الاستجابة للنّفس الأمّارة بالسّوء

---

(١) تفسير الطّبري ١٣/١٩ .

(٢) الآية ١١٦ .

(٣) سورة النّحل ٦٢ .

والشّيطان الرّجيم إلى الدّرك الّذى بسببه لم يتجاوبوا عاطفيّاً مع بنيامين بل اتّهموا معه شقيقه يوسف بالسّرقة كان تمكّن الذّلّ منهم للعزيز حينما جدّ الجدّ وتأكّد استرقاق بنيامين. إنّهم فى لهجة الذّليل الضّارع ينادون عزيز مصر العادل الكريم ويقولون له إنّ لأخيهم من أبيهم بنيامين أباً شيخاً كبيراً طاعناً فى السّنّ واهن العظم يحبّه حبّاً جمّاً ويتسلّى به عن شقيقٍ له فقده من قديم الزّمان فخذ أحدنا مكانه، واسترقق أيّ واحدٍ منّا مقابل إطلاق سراح بنيامين كي يعود إلى والده الشّيخ الكبير الّذى يحبّه بأكثر منّا بسبب صغره وبسبب ملئه الفراغ الّذى تركه شقيقه الغائب. إنّا نراك من المحسنين فى كلّ أفعالك فاجعل تلبية طلبنا وتحقيق رجائنا بعض إحسانك.

قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾

معاذ الله : معاذ مفعول مطلق لفعلٍ محذوفٍ تقديره أعوذ[1] معاذ الله معناه أعوذ بالله. وكذلك تفعل العرب فى كلّ مصدر وضعته موضع يَفْعَلُ ويَفْعُلُ فإنّها تنصب كقولهم : حمداً لله وشكراً له بمعنى أحمد الله وأشكره[2] والعوذ : الالتجاء إلى الغير والتّعلّق به يقال : عاذ فلانٌ بفلان. وقوله : ﴿معاذ الله﴾ أي نلتجىء إليه ونستنصر به أن نفعل ذلك فإنّ ذلك سوءٌ نتحاشى من تعاطيه[3].

كان ردّ يوسف عليه السّلام الرّافض لطلب الإخوة عنيفاً. إنّه عليه السّلام يعوذ بالله تعالى ويلتجىء إليه جلّ وعلا أن يأخذ إلاّ من وجد المتاع عنده والصّواع فى رحله. إنّه عليه السّلام لو أخذ بريئاً بمسيء فإنّه من الظالمين الّذين يضعون الأمور فى غير مواضعها فيعاقبون البريئين بأعمال المذنبين.

ويلاحظ أنّ يوسف عليه السّلام لا يجيء عل لسانه مثل هذا القول : إلاّ من سرق صواعنا أو سقايتنا أو متاعنا، إنّما يجيء القول : ﴿إلا من وجدنا متاعنا عنده﴾ وصدق عليه الصّلاة والسّلام فيما قال.

---

(١) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٣٣/٧ .

(٢) تفسير الطّبري ٢٢/١٣ .

(٣) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «عوذ» ٣٥٢ .

فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ
قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم
مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُّمُونِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ
ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾

فلمّا استيأسوا منه : اليأس انتفاء الطّمع. يقال يئس واستيأس مثل عَجِب واستعجب وسَخِر واستسخر[1] فلمّا استيأسوا منه : فلمّا يئسوا منه. وقوله استيأسوا استفعلوا من يئس الرّجل من كذا ييأس[2].

خلصوا نجيّاً : انفردوا عن النّاس[3] خالصين عن غيرهم[4] يتناجون لا يختلط بهم غيرهم[5] والنّجيّ المناجى ويقال للواحد والجمع. قال ﴿وقرّبناه نجيّاً﴾ وقال ﴿فلمّا استيأسوا منه خلصوا نجيّاً﴾[6] كما يقال رجلٌ عدل ورجالٌ عدل وقومٌ زَوْر وفطر. وهو مصدر من قول القائل : نجوت فلاناً أنجوه نجيّاً. جعَله صفةً ونعتاً[7].

لمّا يئس الإخوة من أخذ العزيز واحداً منهم مكان بنيامين، وتمكّن منهم اليأس ﴿خلصوا نجيّاً﴾ وانفردوا خالصين عن غيرهم متناجين[8] وهنا انفجر كالبركان الثّائر كبيرهم فى السّنّ[9] الّذى وضع الله سبحانه وتعالى فى صدره القدر المحدود من الودّ للشّقيقين، وجعل فى قلبه الكمّيّة القليلة من المحبّة ليوسف وبنيامين، والّذى سبق له بشأن رغبة إخوته قتل يوسف أو إلقاءه أرضاً مخوفة أن رفض الرّأيين اللّذين اعتبرهما قتلاً

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «يأس» ٥٥٢ .
(٢) تفسير الطّبري ١٣/٢٢ .
(٣) تفسير ابن كثير ٢/٤٨٧ .
(٤) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «خلص» ١٥٤ .
(٥) تفسير الطّبري ١٣/٢٢ .
(٦) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «نجو» ٤٨٤ .
(٧) تفسير الطّبري ١٣/٢٢ .
(٨) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٧/٣٥ .
(٩) تفسير الطّبري ١٣/٢٣ و ٢٤ .

ليوسف بطريق مباشر وبطريقٍ غير مباشر، واقترح إلقاء يوسف في غيابة الجبّ كي يلتقطه بعض أفراد القوافل الّتي تذرع الطّريق جَيْئَةً وذَهابا بصورةٍ مستمرّة. إنّ هذا الأخ الأكبر يقول لإخوته التّسعة ألم تعلموا أنّ أباكم يعقوب عليه السّلام قد أخذ عليكم عهداً مؤكّداً وموثّقاً بيمين لتأتُنّه ببنيامين إلاّ أن يحاط بكم، ومِنْ قبلُ قد فرّطتم في يوسف بإصراركم على التّخلّص منه بالقتل وما في حكم القتل فاضطررتُ للنّزول مع رغبتكم إلى الحدّ الأدنى فاقترحت عليكم إلقاء يوسف في غيابة الجبّ. وفي وقت التّنفيذ تحوّل الإلقاء بيوسف جعلاً رفيقاً له في غيابة الجبّ. إنّي تجاه هذه النّازلة الأخرى الّتي ستحلّ بوالدي يعقوب عليه السّلام بسبب استرقاق بنيامين لن أبرح أرض مصر ولن أفارقها[1] حتّى يأذن لي أبي في المغادرة والعودة إلى فلسطين، أو يحكم الله تعالى لي بالعودة بأن يطلق سراح بنيامين، وربّما بوجود يوسف أيضاً. والله تعالى هو خير الحاكمين وأحكم الفاصلين[2].

وما معنى اتّخاذ كبير الإخوة قراره بالبقاء في مصر حيث يسترقّ بنيامين؟ معناه أنّ الإخوة الّذين جاءوا إلى مصر وعددهم أحد عشر أخاً سيعودون إلى أبيهم وعددهم تسعةً فقط بإرادة الله تعالى. وما أشدّ وطأة كلٍّ من النّبأ الجلل في حقّ بنيامين والقرار الجلّل في حقّ كبير الإخوة على يعقوب عليه السّلام الّذي كان يطمع في زيادة عدد الإخوة بأن يعودوا اثني عشر أخاً بعد مجيء يوسف عليه السّلام وإذا به عليه الصّلاة والسّلام يفاجأ بالنّقصان وبالمزيد من الأحزان.

ومن البيّن أنّ الأخ الأكبر نسيج وحده بين الإخوة العشرة لأنّه من ناحيةٍ صاحب القرار بجعل يوسف في غيابة الجب، ومن ناحيةٍ أخرى صاحب القرار بالبقاء في مصر بسبب ثبوت ظاهر السّرقة على بنيامين واسترقاقه وما يترتب على ذلك من زيادة أحزان يعقوب عليه السّلام الوالد الّذي لا يكاد يُعْرَف بين الرّجال مثيلٌ له في فرط شغفه بأولاده.

وكما انفرد كبير الإخوة باتّخاذ قرار البقاء في مصر انفرد بتلقين الإخوة ما يقولونه لأبيهم نبيّ الله تعالى يعقوب عليه السّلام في الآية الكريمة التّالية.

---

(١) تفسير الطّبري ١٣/٢٣ و٢٤.

(٢) انظر مثلاً الوحدة الموضوعيّة في سورة يوسف عليه السّلام ٢٥٠ - ٢٥٣. الطّبعة الثّانية. مطبوعات تهامة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣ م.

ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ
وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾

يأمر كبير الإخوة إخوته بأن يرجعوا إلى أبيهم يعقوب عليه السّلام فى فلسطين وأن يقولوا له : يا أبانا، إنّ ابنك بنيامين سرق وما شهدنا عليه بالسّرقة إلّا بما علمنا ووقع تحت بصرنا من استخراج الصّواع من متاعه، وما كنّا للغيب حافظين وبما سوف يأتيه بنيامين عالمين وإلّا لما آتيناك الموثق والعهد المؤكّد بأن نأتيك به ونعود به إليك.

ومع أنّ الإخوة التّسعة حينما يرجعون إلى أبيهم يكونون قد تركوا فى مصر وراءهم ابنين ليعقوب عليه السّلام فإنّ يعقوب عليه السّلام يفهم من القول : ﴿إنّ ابنك سرق﴾ أنّ المقصود بنيامين عليه السّلام لأنّه هو الّذى يتسلّى به عن يوسف، وهو الّذى آتى الإخوةُ يعقوب عليه السّلام الميثاق من أجله.

ولا يكتفى الأخ الأكبر بتلقين إخوته القول بل ينبّههم إلى دور الشّهادة فى المسألة وذلك فى الآية الكريمة التّالية.

وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾

يأمر كبير الإخوة إخوته بأن يطلبوا من أبيهم يعقوب عليه السّلام، أن يسأل الشّهود على ما قال الإخوة بشأن السّبب الّذى من أجله استرقّ عزيز مصر بنيامين. إنّ فى إمكان يعقوب عليه السّلام إن شاء أن يسأل أهل قرية مصر[1] الّذين شهدوا عمليّة تفتيش الأمتعة واستخراج الصّواع، وإن شاء أن يسأل القافلة الّتى أقبل فيها الإخوة من مصر إلى فلسطين كي يتأكّد عليه السّلام أنّهم صادقون فى كلّ حرفٍ قالوا.

ويُفْهَمُ من سؤال أهل قرية مصر أنّ المؤذّن أذّن فى العير بعد أن فصلت وقبل أن تغادر مدينة مصر. كما يُفْهَم من سؤال القافلة أنّ الإخوة لم يكونوا وحدهم الّذين يشكّلون كلّ القافلة، إنّما كان معهم فى السّفر آخرون.

---

(١) تفسير الطّبري ١٣/٢٥ .

قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾

من البيّن وجه الشّبه بين الآية الكريمة وبين الآية الكريمة الثّامنة عشرة. قال تعالى : ﴿وجاءوا على قميصه بدمٍ كذب. قال بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً فصبرٌ جميلٌ والله المستعان على ما تصفون﴾ وبما أنّ الإخوة مذنبون فى حقّ يوسف عليه السّلام وقد زعموا أنّ الذّئب أكله : ﴿وجاءوا على قميصه بدم كذب﴾ وبما أنّ يعقوب عليه السّلام اتّهمهم بأنّ أنفسهم الأمّارة بالسّوء قد زيّنت لهم أمراً قبيحاً فى حقّ يوسف ولا يملك يعقوب عليه السّلام سوى الصّبر الجميل فإنّ يعقوب عليه السّلام يسحب على الإخوة اتّهامه السّابق لهم. إنّهم بعد أن رجعوا إليه وأخبروه بالنبأ الجلل وطلبوا منه أن يسأل أهل القرية فى مصر وأهل القافلة فى فلسطين جاء على لسانه القول الّذى سبق له أن جرى على لسانه : ﴿قال بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً فصبرٌ جميل﴾ والمعروف أنّ ﴿بل﴾ تفيد الإضراب عن الكلام السّابق فهو فى حكم المسكوت عنه أو المعدوم. إنّ الباعث الحقيقيّ فى اعتقاد يعقوب عليه السّلام، على ما أتاه الإخوة فى حقّ بنيامين - ومن قبل فى حقّ يوسف - هو أنّ أنفسهم الأمّارة بالسّوء زيّنت لهم أمراً سيّئاً فى حقّ بنيامين. ولا يملك يعقوب عليه السّلام سوى الصبر الجميل الّذى لا جزع معه ولا شكوى. والمعنى : فصبرٌ جميلٌ صبرى، أو أمرى صبرٌ جميل.

وإذا كان يعقوب عليه السّلام قد فرّ إلى الاستعانة بالله تعالى وذلك فى القول : ﴿والله المستعان على ما تصفون﴾ فإنّه عليه السّلام، وقد اشتدّت المحنة وطئاً فى المرّة الثّانية، قد اشتدّ إيمانه، وزاد أمله، واتّسع رجاؤه فى الله تعالى، وهاهو ذا عليه السّلام يسير مع رجائه فى الله تعالى إلى منتهى الشّوط وذلك فى القول : ﴿ عسى الله أن يأتينى بهم جميعاً إنّه هو العليم الحكيم﴾

والحقيقة أنّا لا نعرف تفسيراً لزيادة أمل يعقوب عليه السّلام بمقدار زيادة الآلام إلاّ أنّنا بصدد طرازٍ فريدٍ من الإيمان والثّقة المطلقة فى الله تعالى الفعّال لما يريد الّذى لا يعجزه شيءٌ فى الأرض ولا فى السّماء. وكيف لا يكون رجاء يعقوب عليه السّلام فى ازدياد بمقدار زيادة الآلام ونحن أمام نبيّ من أنبياء الله ينظر بنور الله تعالى ويتصرّف فى ضوء العلم اللّدنّيّ الّذى حباه إيّاه وخصّه به الله تعالى العليم الّذى أحاط بكلّ شيء علماً، الحكيم فى أقواله وأفعاله وقضائه وقدره وفى كلّ شيء.

وبعد أن اتّجه يعقوب عليه السّلام بكلّ رجائه إلى الله تعالى لم ينبس في هذا الموضوع ببنت شفة. وبما أنّ جرح بنيامين الجديد نكأ جرح يوسف القديم فإنّ يعقوب عليه السّلام تأسفّ على يوسف، وعاوده حزنه القديم الّذى أنهكه. وفى هذه المعانى تحدّثت الآية الكريمة التّالية :

﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾

وتولّى عنهم : وأعرض عنهم يعقوب[١].

والأسف : أشدّ الحزن والتّندم[٢] والألف من يا أسفى بدل من ياء الإضافة[٣].

فهو كظيم : الكظم مخرج النّفس. وكظم الغيظ حَبْسُه. وكَظَم السّقاء شدّه بعد ملئه مانعاً لنفسه[٤] فهو كظيم، يقول : فهو مكظومٌ على الحزن. يعنى أنّه ممّاوءٌ منه ممسكٌ عليه لا يبينه، صرف المفعول منه إلى فعيل[٥].

أعرض يعقوب عليه السّلام عن بنيه ونأى بجانبه عنهم، ونادى من أعماقه صارخاً : ﴿يا أسَفَى على يوسف﴾ ويا حزني الشّديد على ابني الحبيب يوسف بعد غياب بنيامين الّذى كنت أتسلّى به عنه. ومن البيّن الجناس غير التّام فى القول : ﴿يا أسفا على يوسف﴾ عن سعيد بن جبير أنّه قال : لم يعط أحدٌ غير هذه الأمّة الاسترجاع. ألا تسمعون إلى قول يعقوب عليه السّلام ﴿يا أسفى على يوسف﴾[٦] قال تعالى[٧] : ﴿ولنبلونّكم بشيءٍ من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثّمرات. وبشّر الصّابرين. الّذين إذا أصابتهم مصيبةٌ قالوا إنّا لله وإنّا إليه راجعون. أولئك عليهم صلواتٌ من ربّهم ورحمةٌ وأولئك هم المهتدون﴾.

---

(١) تفسير الطّبري ١٣/٢٦ .

(٢) تفسير الطّبري ١٣/٢٦ .

(٣) الجلالين والكشّاف ٢/١٥٠ .

(٤) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «كظم» ٤٣٢ .

(٥) تفسير الطّبري ١٣/٢٦ .

(٦) تفسير ابن كثير ٢/٤٨٧ .

(٧) سورة البقرة ١٥٥ ـ ١٥٧ .

وبسبب بكاء يعقوب عليه الصّلاة والسّلام حزناً على أبنائه ذهب نور عينيه وابيضّتا معاً. وبسبب تراكم الأحزان فى نفسه عليه السّلام وعدم وجود المتنفّس أصبح بمثابة القربة المنتفخة الممتلئة الّتى أحكم شدّها وربطها كيلا يخرج شيءٌ منها.

قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾

قالوا تالله تفتؤ تذكر يوسف : يقال : ما فَتِئْتُ أفعل كذا وما فَتَأْتُ أفعل كذا وما فَتَأْتُ، كقولك : مازلت[1] عن ابن عبّاس : قالوا تالله تفتؤ تذكر يوسف ، قال : لاتزال تذكر يوسف. قال : لا تفتر من حبّه[2].

حتّى تكون حرضاً : أصل الحرض الفساد فى الجسم والعقل من الحزن أو العشق. يقال منه : رجلٌ حَرَض، وامرأةٌ حرض، وقومٌ حرض، ورجلان حرض. على صورةٍ واحدة للمذكّر والمؤنّث وفى التّثنية والجمع، يقول : حتّى تكون دَنِفَ الجسم مخبول العقل[3] والحَرض : ما لا يُعْتَدّ به ولا خير فيه. ولذلك يقال لما أشرف على الهلاك حَرِض[4].

بباعث الإشفاق على أبيهم والخوف على حياته عليه الصّلاة والسّلام يقول الأبناء فى أسلوب التّعجّب : والله لا تزال تذكر يوسف دون فائدة حتّى تكون مشرفاً على الهلاك أو حتّى تكون مِن الهالكين فعلاً!

قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾

يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «فتىء» ٣٧٣ .

(٢) تفسير الطّبري ١٣/٢٨ .

(٣) انظر تفسير الطّبري ١٣/٢٨ .

(٤) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «حرض» ١١٣ .

مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾

إنّما أشكو بثّى : بثّ النّفس ما انطوت عليه من الغمّ والسّرّ. يقال : بثثته فانبثّ. ومنه قوله عزّ وجلّ ﴿فكانت هباءً منبثاً﴾ وقوله عزّ وجلّ : ﴿وبثّ فيها من كلّ دابّة﴾ إشارةٌ إلى إيجاده تعالى مالم يكن موجوداً وإظهاره إيّاه. وقوله عزّ وجلّ : ﴿كالفراش المبثوث﴾ أي المهيَّج بعد سكونه وخفائه. وقوله عزّ وجلّ : ﴿إنّما أشكو بثّى وحزنى﴾ أي غمّي الّذى يبثّه عن كتمان[1].

يا بنيّ اذهبوا فتحسّسوا من يوسف وأخيه : التمسوا يوسف وتعرّفوا من خبره. وأصل التّحسّس التّفعّل من الحسّ[2] والتّحسّس يكون فى الخير، والتّجسّس يكون فى الشرّ[3] وأخيه : يعنى بنيامين[4].

ولا تيأسوا من روح الله : ولا تقنطوا من فرج الله ورحمته[5].

كان ردّ يعقوب عليه السّلام على أبنائه التّسعة الّذين ذابت أفئدتهم شفقةً عليه ذا شقّين اثنين. أمّا الشّقّ الأوّل فذو علاقةٍ بالعِلْم الباعث له على ما يحبسه فى أعماقه من بثٍّ ينبغى أن يبثّه وينشره ومن حزنٍ يريد أن يتخفف منه. وهذه المعانى ميدان الآية الكريمة الأولى. وأمّا الشّقّ الآخر فذو علاقةٍ بالعمل الّذى على الأبناء أن يقوموا به وما يُنْتَظرُ من فرج الله تعالى ورحمته. وهذه المعانى ميدان الآية الكريمة الأخرى.

إنّ يعقوب عليه السّلام يبيّن لأبنائه فى الآية الكريمة الأولى أنّه إنّما يشكو بثّه، وما تمتلىء به نفسه من غمّ وهمّ هو بحاجةٍ دائماً وأبداً لأن يتخفّف من شىءٍ منه، وقديماً قيل : لابدّ للمصدور أن ينفث[6] وإنّما يشكو حزنه الحيّ النّامى لوجود الباعث على بقاء الحزن ونموّه، إنّما يشكو بثّه وحزنه لله تعالى وحده لا شريك له وليس لأحد من البشر وإن

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «بثّ» ٣٧ .

(٢) تفسير الطّبري ١٣/٣٢ .

(٣) تفسير ابن كثير ٢/٤٨٨ .

(٤) تفسير الطّبري ١٣/٣٢ .

(٥) انظر تفسير الطّبري ١٣/٣٢ .

(٦) المصدور الّذي يشتكي صدره ، وهو يستريح ويشْفَى بالنّفث . مجمع الأمثال للميداني ٢٧/٢٤١ مثل رقم ٣٦٦٧ .

كانوا أبناءه. إنّه يشكو بثّه وحزنه لله تعالى لأنّه هو جلّ وعلا كاشف الغم مجيب المضطرّ إذا دعاه. أمّا سبب بقاء ما ينبغى بثّه وعلّة نماء حزنه فهو أنّه عليه السّلام يعلَم من الله تعالى ما لا يعلمون. أمّا هذا الّذى يعلمه ولا يعلمونه فإنّه رؤيا يوسف عليه السّلام فإنّها صدق(١).

وإنّ يعقوب عليه السّلام يأمر أبناه فى الآية الكريمة الثّانية بأن يذهبوا ويضربوا فى أرض الله تعالى ويتحرّوا الأخبار الحسنة من يوسف وأخيه بنيامين. وينهاهم عليه الصّلاة والسّلام عن اليأس من رحمة الله وفرجه. ويبيّن لهم أنّ الّذين ييأسون من رحمة الله تعالى هم القوم الكافرون وحدهم.

ويلاحظ أنّ حديث يعقوب عليه السّلام فى الآية الكريمة الأولى عن يوسف وأخيه ضمنيّ. إنّه عليه السّلام يعلم من الله تعالى ما لا يعلمون. وممّا يعلمه عليه السّلام أنّ يوسفَ عليه السّلام حيٌّ يرزق لأنّ رؤياه لمّا تتحقّق. وممّا يعلمه عليه السّلام أنّ ثمّة سرّاً وراء اتّهام بنيامين بالسّرقة. وهل يُعْقَلُ أن يرتكب ابنٌ لأحد أنبياء الله تعالى جريمة السّرقة!

كما يلاحظ أنّ حديث يعقوب عليه السّلام فى الآية الكريمة الثانية عن يوسف وأخيه صريح. وإنّ أعجب ما فى موقف الأبناء من الأمر بالبحث والتّحسّس من يوسف بالذّات أنّ الإخوة سكتوا ولم ينبسوا ببنت شفة. والسّكوت معناه أنّهم سوف يقومون بالتحسّس من يوسف وأنّ لهم يداً فى غياب يوسف. وكأنّنا بصدد شبه اعترافٍ صريح من الإخوة بأنّ أنفسهم الأمّارة بالسّوء قد سوّلت لهم أمراً ضد يوسف، وأنّ ضمائرهم قد استيقظت، وأنّهم يريدون أن يكفّروا عن سيّئاتهم بالبحث عن يوسف.

ولمّا كان يعقوب عليه السّلام قد أمرهم بالتّحسّس من يوسف وأخيه ولكنّهم لا يعلمون شيئاً عن يوسف إنّما يعلمون كلّ شيء عن بنيامين الّذى يوجد فى مصر وبالقرب منه أخوهم الأكبر، فمن الطّبيعيّ أن يتجه الإخوة هذه المرّة أيضاً إلى مصر. ومع أنّهم يذهبون من أجل التّحسّس من يوسف وأخيه فإنّ المجاعة لمّا كانت مطبقةً فإنّهم فى سفرهم إلى مصر جمعوا بين التّحسّس من الشقيقين وبين الحصول على الطّعام، رغم أنّ بضاعتهم مزجاة، ودراهمهم زيوف. ولمّا كان التّحسّس إنّما يتمّ عن طريق الحواسّ ومنها اللّمس وكان يعقوب عليه السّلام يستعمل هذه الحاسّة كثيراً بعد فقد بصره فذلك دليلٌ على الدّور البليغ لجملة : تحسّسوا.

---

(١) انظر تفسير الطّبري ١٣/٣٠ وتفسير ابن كثير ٢/٤٨٨.

((يوسف عليه السلام يكشف لاخوته عن نفسه في رحلتهم الثالثة الى مصر ويطلب جميع أهله))

الآيـات (٨٨ـ ٩٨)

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾

مسّنا وأهلنا الضرّ : الجدب والقحط وقلّة الطّعام[1].

وجئنا ببضاعةٍ مزجاة : التّزجية : دفع الشّيء وسوقه لقلّة الاعتداد به[2].

عرفنا أنّ الإخوة أذعنوا لأمر أبيهم يعقوب عليه السّلام بأن يذهبوا ويتحسّسوا من يوسف وأخيه ويتحرّوا الأخبار الحسنة عنهما، وفي الإذعان اعترافٌ ضمنيٌّ بأنّ لهم يداً في غياب أخيهم يوسف. ومن الطبيعيّ أن يتّجه الإخوة إلى مصر حيث يوجد بنيامين وأخوهم الأكبر، ولأن الطّعام الّذي لاتزال حاجتهم شديدةً إليه لا يوجد إلّا في مصر. ويلاحظ ابتداء الآية الكريمة بحرف العطف الفاء الدّالّ على التّرتيب مع التّعقيب وعلى الغاية أيضاً. فمع أنّهم يذهبون إلى مصر أساساً من أجل التّحسّس من يوسف وأخيه، ومع أنّهم لا يتّجهون إلى غير العزيز الّذي يسترقّ بنيامين من ناحية، والّذي يوجدطلديه الطّعام من ناحيةٍ أخرى، فإنّهم لا يجرءون على مفاتحة العزيز في شأن بنيامين ولكن في شأن الطّعام. ومن غير المعقول أن يفاتح الإخوة عزيز مصر في شأن أخيهم يوسف الّذي جعلوه في غيابة الجبّ.

لقد كان الإخوة في غاية الانكسار والذّلّ وهم يقفون أمام عزيز مصر يشكون سوء حالهم وحال آل يعقوب عليه السّلام، ويعترفون بأنّ بضاعتهم الّتي جاءوا بها ثمناً للطّعام بضاعةٌ مزجاة يدفعها كلّ من وقعت عينه عليها لهوانها وتفاهة شأنها، ويطمعون من العزيز أن يقبلها، وينزّلها منزلة البضاعة المقبولة غير المزجاة، والدّراهم الصحيحة غير الزّيوف، وبالتّالي يوفي العزيز لهم الكيل لشدّة حاجتهم إلى الطّعام. لا ليس ذلك فحسب. بل إنّ الإخوة يطلبون من العزيز أن يتصدّق عليهم. ويقرّرون أنّ الله سبحانه وتعالى هو الّذي يجزي المتصدّقين.

ويصحّ أن نفهم أنّ الصّدقة كانت تجوز على آل إبراهيم عليه السّلام[3] والمعروف أنّ

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٤٨٨ وتفسير الطّبري ١٣/٣٣ .

(٢) انظر مفردات الرّاغب الأصفهاني : «زجا» ٢١٢ وتفسير ابن كثير ٢/٤٨٨ .

(٣) انظر هنا تفسير الطّبري ١٣/٣٥ وتفسير ابن كثير ٢/٤٨٨ .

الصّدقة لا تجوز على آل محمد ﷺ. وكأنّ من الفروق بين الشّريعة الإبراهيميّة والشّريعة المحمّديّة أنّ الصّدقة إذا كانت تجوز على آل إبراهيم عليه السّلام فإنها لا تجوز على آل محمّد ﷺ. وسبق أن عرفنا فرقاً آخر بين الشّريعتين بشأن حدّ السّرقة. إنّ حدّ السّارق فى الشّريعة الإبراهيميّة أن يُسْتَرقّ ويُسْتَعْبَد أمّا فى الشّريعة المحمّديّة فحدّ السّارق والسّارقة قطع اليد على النّحو المعروف.

قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾

لمّا كان ما فعله الإخوة بيوسف عليه السّلام لا يعلمه من بين عباد الله تعالى سوى يوسف عليه السّلام لذا فإنّ ما جاء فى هذه الآية الكريمة لا يجرى فى نظر الإخوة إلاّ على لسان أخيهم يوسف. إنّ عزيز مصر يسأل الإخوة : هل علمتم وأدركتم جيّداً ما فعلتم بيوسف أخيكم حينما وضعتموه فى غيابة الجبّ، وبشقيقه بنيامين حينما أسأتم معاملته، إذ أنتم جاهلون وطائشون وحمقى! إنّ يوسف عليه السّلام قد أخذته الرّأفة بإخوته والشّفقة بأبويه فى الشّام لذا هو يكشف لإخوته عن حقيقة نفسه وأخيه.

ونستطيع أن نفهم أنّ يوسف عليه السّلام إنّما كان يتصرّف بوحي من الله تعالى الّذى له وحده دون سواه الخلق والأمر. إنّه عليه السّلام أخفى نفسه فى المرّتين الأوليين بأمرٍ من الله تعالى، وكشف فى المرّة الثّالثة عن حقيقة نفسه بأمرٍ من الله تعالى كذلك.

قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾

لمّا كان السّؤال فى الآية الكريمة السّابقة لا يجرى فى نظر الإخوة إلا على لسان يوسف عليه السّلام الّذى وضعوه فى غيابة الجبّ بقصد التخلّص منه فإنهم يسألون فى هذه الآية الكريمة التّالية متعجّبين : ﴿أئنّك لأنت يوسف﴾! أئنّك لأخونا يوسف! أأنت أخونا يوسف ولست سواه! ولا يخفى دلالة أنّ واللاّم واسم الضّمير المنفصل : ﴿أنت﴾ على التّوكيد، وعلى وقع المفاجأة الشّديد على الإخوة.

ويجيب يوسف عليه السّلام الإخوة بأنّه هو يوسف أخوهم. ولا يكتفى عليه السّلام بذلك بل يشير إلى شقيقه القريب منه الجالس بجواره : ﴿وهذا أخى﴾ فليس

بنيامين مسترقّاً كما ظنّ الإخوة. ويقرّر يوسف عليه السّلام أنّ الله سبحانه وتعالى قد منّ على كلٍّ منهما. إنّ يوسف عليه السّلام عزيز مصر، وإنّ شقيقه بنيامين ساعده الأيمن. وقد منّ الله تعالى عليهما بالاجتماع.

ويبيّن يوسف عليه السّلام لإخوته الحكمة وراء المنزلة الرّفيعة الّتي أكرمهما الله تعالى بها، وتلك المنزلة في مقابل ذلّ الإخوة إلى حدّ طلب الصّدقة من يوسف عليه السّلام. إنّ هذا الإكرام الّذي اصطفاهما الله تعالى به مقابل ارتقائهما بفضل الله تعالى إلى مرتبة الإحسان. أمّا الدّعامتان اللّتان اعتمدا عليهما بفضل الله تعالى في سبيل الوصول إلى مرتبة الإحسان فإنّهما تقوى الله تعالى في السّر والعلن، والصّبر على الضرّاء والنعماء وعن المعاصي.

قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴿٩١﴾

وإن كنّا : إن هي المخفّفة من الثّقيلة أي إنّا كنّا[1] والدّليل على ذلك مجيء اللّام الفارقة في القول : ﴿لخاطئين﴾[2].

لخاطئين : الخطأ : العدول عن الجهة. وذلك أضرب. أحدها : أن يريد غير ما تحسن إرادته فيفعله وهذا هو الخطأ التّامّ المأخوذ به الإنسان. يقال خطِيء يَخْطَأ خِطْأً وخِطْأة. قال تعالى : ﴿إنّ قتلهم كان خِطْئاً كبيراً﴾ وقال : ﴿وإن كنّا لخاطئين﴾ والثّاني : أن يريد ما يحسن فعله ولكن يقع منه خلاف ما يريد فيقال : أخطأ إخطاءً فهو مخطىء. والثّالث أن يريد ما لا يحسن فعله ويتّفق منه خلافه. فهذا مخطىء في الإرادة ومصيبٌ في الفعل[3].

في أسلوب التّعجّب ممّا حدث يقسم الإخوة بالله العظيم بأنّ الله تعالى قد فضّل يوسف عليه السّلام عليهم ويعترفون بأنّهم قد ارتكبوا عن عمد وسبق إصرار أبشع خطأ في حقّ يوسف عليه السّلام وفي حقّ شقيقه بنيامين.

---

(١) الجلالين.

(٢) انظر الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٤٨/٧.

(٣) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «خطأ» ١٥١.

قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ
ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾
ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا
وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾

لا تثريب عليكم اليوم : التّثريب التّقريع والتّقهير بالذّنب. وروي : إذا زنت أَمَةُ أحدكم فليجلدها ولا يثرّبها. وقوله تعالى : ﴿ ياأهل يثرب﴾ أي أهل المدينة، يصحّ أن يكون أصله من هذا الباب والياء تكون فيه زائدة[1] يقول حكيم المعرّة[2]

وهل ألحق التّثريب سكّان يثرب من النّاس لا بل في الرجال غباءُ .

إن يوسف عليه الصّلاة والسّلام النّبيّ المصطفى المختار يَعِفّ عن مجرّد تقريع إخوته وتثريبهم، لومهم وتأنيبهم تجاه حرصهم على التخلّص منه وما ترتّب على ذلك من أذيً بليغٍ لحق به فضلاً عمّا وراء التّقريع والتّأنيب من عقابٍ كان عليه السّلام قادراً عليه .

وإنّه عليه الصّلاة والسّلام يَعِفّ عن مجرد التّقريع والتأنيب فى ذلك اليوم الّذى يعتبر أوّل فرصةٍ له عليه السّلام مواتية مكّنته من البطش بأخوته فضلاً عمّا وراء ذلك اليوم حينما تهدأ النفس، وتقلّ الرّغبة فى الانتقام، وتزيد الرّغبة فى العفو بعد المقدرة.

ولا يكتفى عليه الصّلاة والسّلام بالعفو عن إخوته فى ذلك اليوم المشهود والموقف العصيب، إنّما يتجاوزه إلى دعاء الله تعالى أن يغفر لهم وهو جلّ وعلا العفوّ الغفور أرحم الرّاحمين.

وإنّ عفو يوسف عليه السّلام عن إخوته بعد المقدرة، وإنّ هذا الخلق الكريم الّذى يتحلّى به العظماء يذكّرنا بعفو المصطفى ﷺ عن كفّار مكّة بعد أن فتحها عليه الصّلاة والسّلام عَنْوَةً فى شهر رمضان سنة ثمانٍ من الهجرة، وبخلقه العظيم ﷺ فى

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «ثرب» ٧٩ .
(٢) اللّزوميّات ١/٦٦ اللّزوميّة الثّانية .

العفو بعد المقدرة. إنّه عليه الصّلاة والسّلام قال للمشركين : أقول كما قال أخي يوسف ﴿لا تثريب عليكم اليوم﴾ وأخذ بِعِضادتي[1] باب الكعبة فقال لقريش فيما يقال : ما ترونني فاعلاً بكم؟ قالوا : نظنّ خيراً ، أخٌ كريم وابن أخٍ كريم وقد قدرت. فقال : أقول ما قال أخي يوسف : ﴿لا تثريب عليكم اليوم﴾[2] وقال : اذهبوا فأنتم الطّلقاء[3].

ويبادر يوسف عليه السّلام إلى السّؤال عن حال أبيه يعقوب عليه السّلام بعد غياب شقيقه بنيامين عنه وعدم عودته إليه، ويخبرونه بأن عينيه الاثنتين قد ابيضّتا من البكاء، ويبادر عليه الصّلاة والسّلام إلى أمر الإخوة بأن يذهبوا على الفور بقميصه عليه الصّلاة والسّلام القريب منه ولهذا يشير إليه باسم الإشارة الدّالّ على القرب : ﴿هذا﴾ ويأمر يوسف عليه الصّلاة والسّلام الإخوة بأن يلقوا قميصه على وجه أبيه كي يرتدّ بصيراً. ويلاحظ أنّ القميص يُلْقَى على الوجه فتبرأ العين معجزةً ليوسف عليه السّلام وترتدّ مبصرة!

ونستطيع أن نفهم أنّ جملة : ﴿يأت﴾ في القول : ﴿فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً﴾ تفيد معنيين اثنين. المعنى الأول يتعلّق بارتداد العين العمياء مبصرة. وهذا المعنى نفهمه من مجيء لفظة : ﴿بصيراً﴾[4] والمعنى الآخر إتيان يعقوب عليه السّلام من كنعان في فلسطين إلى مصر حيث يوجد يوسف عليه السّلام عزيزها. وهذا المعنى نفهمه من القول بعد ذلك : ﴿وأتوني بأهلكم أجمعين﴾ وكأنّنا بصدد طلب عامّ للأهل أجمعين بعد طلب خاصّ للأب. ولمّا كان يعقوب عليه السّلام كبير آل يعقوب فكأنّ يوسف عليه السّلام يطلب أباه يعقوب عليه السّلام بأن يأتيه مرّتين اثنتين. مرّةً على جهة الخصوص. ومرّةً أخرى على جهة العموم.

وكما نستطيع أن نفهم من القول : ﴿وأتوني بأهلكم أجمعين﴾ بعد الشّقّة بين يوسف عليه السّلام في مصر وبين أهله في الشّام، نستطيع أن نفهم من القول : ﴿يأت بصيراً﴾ بعد الشّقّة ذاتها بين يوسف ويعقوب عليهما السّلام من ناحية، وبعد دلالة ارتداد البصر على هذه المعجزة العظيمة ليوسف عليه السّلام من ناحية أخرى. إنّه عليه السّلام يتحدّث في لهجة الواثق بأنّ الإخوة بمجرّد إلقاء قميصه على وجه أبيه سوف يرتدّ

---

(١) عضادتا الباب : الخشبتان المنصوبتان عن يمين الدّاخل منه وشماله «اللّسان».

(٢) انظر الكشّاف ٢/١٥٤.

(٣) السّيرة النّبويّة ٤/٥٥.

(٤) وانظر ما قيل بشأن القول : ﴿فارتدّ بصيراً﴾ في الآية الكريمة السّادسة والتّسعين.

نور الإبصار إلى كلتا عيني يعقوب عليه السّلام! ونكرّر : إنّ الإلقاء على الوجه لا العين!.

وليس بخافٍ الدّور العظيم لقميص يوسف عليه السّلام في هذه المرّة الثّالثة والأخيرة. وسبق أن فهم يعقوب عليه السّلام من مجيء الإخوة بقميص يوسف عليه السّلام غير الممزّق وغير المخرّق بأنّ الذّئب لم يأكل يوسف. وسبق أن فهم الشّاهد من قدّ قميص يوسف عليه السّلام من الخلف أنّه عليه السّلام بريءٌ وأنّ امرأة العزيز متّهمة.

وإذا كنّا الآن أمام معجزةٍ ليوسف عليه السّلام، النّبيّ الوحيد من بين أبناء يعقوب عليه السّلام الاثني عشر، فإنّ يعقوب عليه السّلام له هو الآخر معجزة أشارت إليها الآية الكريمة التّالية.

وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾

ولمّا فصلت العير : ولمّا خرجت العير[1] والفصل : إبانة أحد الشّيئين من الآخر حتّى يكون بينهما فُرجة، ومنه قيل : المفاصل، الواحد مَفْصِل. وفَصَلْتُ الشّاة قطعت مفاصلها. وفصل القومُ عن مكان كذا وانفصلوا : فارقوه[2].

إنّي لأجد ريح يوسف : الرّيح الهواء المتحرّك. وعامّة المواضع الّتي ذكر الله تعالى فيها إرسال الرّيح بلفظ الواحد فعبارةٌ عن العذاب[3] إلّا إذا كان ثمّة القرينة الّتي تصرف الرّيح الواحدة الملتئمة الشّديدة من العذاب إلى الرّحمة وذلك على نحو وصف الرّيح بأنّها طيّبة في قول الحقّ جلّ وعلا في سورة يونس[4] : ﴿هو الّذي يسيّركم في البرّ والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيّبةٍ وفرحوا بها جاءتها ريحٌ عاصفٌ وجاءهم الموج من كلّ مكانٍ وظنّوا أنّهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدّين لئن أنجيتنا من هذه لنكوننّ من الشّاكرين﴾ إنّ السّفن كي تسير بإرادة الله تعالى هي بحاجة إلى الرّيح الواحدة الملتئمة الأجزاء الطيّبة. وإذا كان لفظ الرّيح يرتبط في القرآن الكريم

---

(١) تفسير الطّبري ١٣/٣٨ وتفسير ابن كثير ٢/٤٨٩.

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «فصل» ٣٨١.

(٣) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «روح» ٢٠٦.

(٤) الآية ٢٢.

بالعذاب على النّحو الّذى تبيّن فإنّ كلّ موضعٍ ذُكر فيه لفظ رياح فى صيغة الجمع فعبارةٌ عن الرّحمة فى المقابل[1].

لولا أن تفنّدون : تسفّهون وتجهّلون[2] والتّفنيد : نسبة الإنسان إلى الفَنَد وهو ضعف الرّأي[3].

عرفنا أنّ كلّ أبناء يعقوب عليه السّلام الاثني عشر فى مصر آنذاك، وهم التّسعة الّذين أمرهم أبوهم بالتّحسّس من يوسف وأخيه بنيامين. وهذان فى مصر وكذلك كبير الإخوة. ونستطيع أن نفهم أنّ كبير الإخوة قد انضمّ إلى إخوته التّسعة الّذين جاءوا من عند نبيّ الله تعالى يعقوب عليه السّلام وبأمره. ونستطيع أن نفهم كذلك أنّ فرح هذا الأخ الكبير بوجود يوسف عليه السّلام ومعه شقيقه بنيامين حرّاً طليقاً غير مسترق ليس عليه من مزيد فقد حكم الله تعالى له وهو جلّ وعلا خير الحاكمين بشأن بنيامين وتبيّن ليعقوب عليه السّلام أنّه لا يد له ولا لإخوته فى بقاء بنيامين فى مصر. ويستطيع هذا الأخ الكبير آنذاك أن يبرح أرض مصر، وبناءً على ذلك نستطيع أن نفهم أنّ هذا الأخ الكبير كان أوّل من فصلت به العير وخرجت من أرض مصر إلى أرض فلسطين.

والآية الكريمة الأولى تقرّر أنّ العير لمّا فصلت، والقافلة لمّا خرجت من مصر حاملةً قميص يوسف عليه السّلام، وما أبعد الشّقّة بين مصر وفلسطين، شاء الله تعالى أن يجديعقوب عليه السّلام ريح يوسف ورائحة قميصه عليه السّلام. ويلاحظ أنّ يعقوب عليه السّلام وجد ريح يوسف عليه السّلام فى أرض كنعان بفلسطين منذ اللّحظة الّتى غادرت فيها القافلة أرض مصر. ولا شكّ أنّنا بصدد معجزةٍ لنبيّ الله تعالى يعقوب عليه السّلام. ويلاحظ أنّ يعقوب عليه السّلام يقول لآل يعقوب إنّه عليه السّلام يجد فى المكان الّذى هو فيه ريح يوسف ويشمّ رائحته عليه السّلام. ومن البيّن أنّ جملة : ﴿إنّى لأجد﴾ ليس ثمّة الجملة الأخرى الّتى تقوم بعملها وتشهد مشهدها. ومن البيّن كذلك عمق دلالة لفظة : ﴿ريح﴾ على قوّة هذه الرّائحة حتّى إنّها فى قوّة الرّيح الواحدة الملتئمة الأجزاء الّتى حملتها بإذن الله تعالى. بل إنّ وصول هذه الرّائحة إلى يعقوب عليه السّلام ليسبق الرّيح السّريعة بطبعها، لأنّ للرّيح حدّاً فى السّرعة لا تستطيع بأمر الله تعالى أن

---

(١) انظر مفردات الرّاغب الأصفهاني : «روح» ٢٠٦ .

(٢) تفسير الطّبري ١٣/ ٣٩ .

(٣) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «فند» ٣٨٦ .

تتجاوزه وقد عرفنا أنّ يعقوب عليه السّلام وجد ريح يوسف عليه السّلام فى فلسطين فى ذات الوقت الّذى فصلت فيه العير عن أرض مصر. إنّ كلّ هذه المعانى تدلّ على أنّنا بصدد معجزةٍ ليعقوب عليه السّلام، وأنّنا بصدد نبيّين كريمين اصطفاهما الله تعالى بنعمة النّبوّة، وأنّ بينهما لغةً مشتركةً يفهمانها دون سواهما من سائر البشر.

ولمّا كان آل يعقوب عليه السّلام ليسوا مهيّئين لفهم ما يقول يعقوب عليه السّلام الّذى علّمه الله تعالى من لدنه علماً فإنّه عليه السّلام بسبب ما قال لآل يعقوب خاف أن ينسبوه إلى ضعف الرّأي.

والآية الكريمة الأخرى تبيّن أنّ حدس يعقوب عليه السّلام فى موضعه فإنّ آل يعقوب عليه السّلام بباعث الإشفاق عليه ﷺ وقد ابيضّت عيناه من الحزن فهو كظيم يعبّرون فى صريح اللّفظ بأنّه عليه الصّلاة والسّلام بسبب ما يجرى على لسانه من كلام عن يوسف هو أقرب إلى الآمال والأحلام لفي ضلاله القديم وخطئه السّابق بأنّ يوسف عليه السّلام لا يزال حيّاً يرزق وأنّ الشّمل به سيلتئم والعقد سينتظم!

فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾

تبدأ الآية بالفاء العاطفة الّتى تدلّ على التّرتيب مع التّعقيب وعلى أنّ المجيء مسبّبٌ عن رحلة العير وغايةٌ بادر البشير إلى القيام بها. ونعتقد ـ والله تعالى أعلم ـ أنّ هذا البشير الّذى يتعمّد أن يدخل على يعقوب عليه السّلام بقميص يوسف قبل إخوته وبمجرّد وصول القافلة هو كبير الإخوة الّذى جاء على لسانه من قبل قول الحقّ جلّ وعلا[1] : ﴿ومن قبل ما فرّطتم فى يوسف فلن أبرح الأرض حتّى يأذن لى أبى أو يحكم الله لى وهو خير الحاكمين﴾.

وها هو هذا البشير ينفّذ ما أمر يوسف عليه السّلام به إخوته. إنّه يلقى قميص يوسف عليه السّلام على وجه يعقوب عليه السّلام فيرتدّ يعقوب عليه السّلام بصيراً ويعود النّور بإذن الله تعالى إلى كلتا عينى يعقوب عليه السّلام. وإذا كان وجود يعقوب عليه السّلام فى الشّام ريح يوسف عليه السّلام وهو فى مصر معجزةً ليعقوب عليه

(١) سورة يوسف ٨٠.

السّلام، فإنّ ارتداد يعقوب عليه السّلام بصيراً معجزة ليوسف عليه السّلام. ويلاحظ أنّ الآية الكريمة يجيء فيها القول: ﴿فارتدّ بصيراً﴾ فى حين جاء من قبل على لسان يوسف عليه السّلام قول الحقّ جلّ وعلا[1]: ﴿اذهبوا بقميصى هذا فألقوه على وجه أبى يأت بصيراً وأتونى بأهلكم أجمعين﴾ وبذلك نكون بصدد دليلٍ مستفاد من القول ﴿فارتدّ بصيراً﴾ على دلالة القول: ﴿يأت بصيراً﴾ على معنيين اثنين. ارتداد البصر، وإتيان الأهل من الشّام إلى مصر. إنّ ارتداد البصر مستفادٌ بقوّةٍ من القول هنا: ﴿فارتدّ بصيراً﴾ وإنّ إتيان الأهل من مصر مستفادٌ بقوّةٍ كذلك من القول هنالك: ﴿وأتونى بأهلكم أجمعين﴾.

ولمّا كان يعقوب عليه السّلام يهتدى فيما يقول ويفعل بنورٍ من الله تعالى وقد علّمه جلّ وعلا ما لم يعلّمه أحداً من آل يعقوب عليه السّلام حوله فإنّه عليه السّلام يشير إلى هذا العلم اللّدنيّ الّذى خصّه الله تعالى به وذلك فى القول: ﴿قال ألم أقل لكم إنّى أعلم من الله ما لا تعلمون﴾ ألم أقل لكم إنّى لأجد ريح يوسف! ألم أقل لكم تحسّسوا من يوسف وأخيه بنيامين ولا تيأسوا من رحمة الله تعالى وفرجه!.

قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾

فى الآية الكريمة الأولى يطلب الإخوة من يعقوب عليه السّلام أن يستغفر الله تعالى لهم وأن يسأله مغفرة ذنوبهم الّتى ارتكبوها فى حقّ الشّقيقين وفى حقّ يعقوب عليه السّلام على جهة الخصوص، ويعترف الإخوة ليعقوب عليه السّلام كما اعترفوا من قبل ليوسف عليه السّلام بأنّهم كانوا متعمّدين ارتكاب الخطأ فى حقّ يوسف عليه السّلام وحقّ شقيقه بنيامين.

وفى الآية الكريمة الأخرى يبيّن يعقوب عليه السّلام أنّه سوف يستغفر لهم ربّه جلّ وعلا الغفور الرّحيم. ويلاحظ أنّ يعقوب عليه السّلام لا يستغفر لأبنائه على الفور وقد يكون فى ذلك دليلٌ على أنّ فى نفس يعقوب عليه السّلام شيئاً مّا على الإخوة، ولكنّه عليه السّلام يعدهم بأنّه سوف يستغفر لهم ربّه جلّ وعلا وسوف يطلب لهم المغفرة على

---

(١) سورة يوسف ٩٣.

((تأويل رؤيا يوسف عليه السلام))
الآيـات (٩٩ ـ ١٠١)

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾

دور حرف العطف وهو الفاء الدّالّ على التّرتيب مع التّعقيب فى القول : ﴿فلما دخلوا على يوسف﴾ كبيرٌ فى التّنبيه على الغاية وفى الدّلالة على أنّ الدّخول على يوسف عليه السّلام أهمّ الأهداف من الرّحلة. وإنّ الآية الكريمة تشير إلى أنّ يوسف عليه السّلام حينما علم بقدوم والديه وسائر الأهل خرج من مدينة مصر لاستقبالهم والاحتفاء بهم. فلمّا دخل على يوسف عليه السّلام أهله جميعاً ضمّ عليه السّلام إليه أبويه على جهة الخصوص، والده نبيّ الله تعالى يعقوب عليه السّلام ووالدته عليه السّلام، وأكرمهما إكراماً يليق بهما. وباعتبار يوسف عليه السّلام عزيز مصر يتبوأ من أرضها وينزل أيّ مكان يشاء منها فإنّه عليه الصّلاة والسّلام قال لأهله جميعاً : ادخلوا مدينة مصر آمنين إن شاء الله تعالى مطمئنين.

وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾

ورفع أبويه على العرش : العرش السّرير[1] أي أجلسهما معه على سريره[2].
وخرّوا له سجّداً : وسجدا له وسجد له إخوته[3] وقد كان هذا سائغاً فى شرائعهم إذا سلّموا على الكبير يسجدون له. ولم يزل هذا جائزاً من لدن آدم إلى شريعة

---

(١) تفسير الطّبري ١٣/٤٤ وتفسير ابن كثير ٢/٤٩١ .
(٢) تفسير ابن كثير ٢/٤٩١ .
(٣) تفسير الطّبري ١٣/٤٤ وتفسير ابن كثير ٢/٤٩١ .

عيسى عليه السّلام فحرم هذا فى هذه الملّة وجعل السّجود مختصاً بجناب الرّب سبحانه وتعالى[1] .

وجاء بكم من البدو : أي البادية[2].

من بعد أن نزغ الشّيطان : من بعد أن أفسد[3] .

بعد أن خرج يوسف عليه السّلام من مدينة مصر لاستقبال والديه وسائر الأهل وطلب منهم أن يدخلوا مدينة مصر إن شاء الله تعالى آمنين مطمئنّين ودخلوا المدينة رفع عليه الصّلاة والسّلام والديه على سرير حكمه وخرّوا له جميعاً ساجدين واضعين جباههم على الأرض دليل التّعظيم والتّكريم ليوسف عليه السّلام. وكان هذا النّوع من التّحيّة جائزاً فى شرعهم وحتى شرع عيسى عليه السّلام. وقد نهى محمّد بن عبدالله ﷺ عن السّجود ووضع الجبهة على الأرض لغير الله تعالى.

ولمّا كان هذا النّوع من السّجود هو تأويل الرّؤيا الّتى رآها يوسف عليه السّلام حينما كان صغيراً وقصّها على والده وقد أشار إليها قول الحقّ جلّ وعلا[4]: ﴿إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إنّى رأيت أحد عشر كوكباً والشّمس والقمر رأيتهم لى ساجدين﴾ فإنّ يوسف عليه السّلام يجىء على لسانه هنا الإشارة إلى تلك الرّؤيا : ﴿وقال ياأبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربّى حقّا﴾ ومن البيّن وجه الشّبه فى المناسبتين فى خطاب يوسف عليه السّلام لأبيه يعقوب عليه السّلام : ﴿ يا أبت ﴾ إنّ جوّ الودّ واحد فى المناسبتين اللتين يفصل بينهما فيما يقال أربعون سنة[5] إنّ يوسف عليه السّلام يقول : يا أبت هذا الّذى يحدث الآن هو تأويل رؤياي الّتى رأيتها قبل اربعين سنة وتعبيرها قد جعلها ربّى الّذى ربّانى بنعمه وآلائه حقّاً وصدقاً.

وأشار يوسف عليه السّلام إلى بعض ما عانى بسبب جعل إخوته له فى غيابة الجبّ ولكنّه لم يشر إلى ما فعله الإخوة معه بطريقٍ مباشر إنّما بطريقٍ غير مباشر. إنّه عليه الصّلاة والسّلام يشير إلى فضل الله تعالى عليه بإخراجه من السّجن الّذى زُجّ عليه السّلام به فيه ظلماً وعدواناً. ومع أنّ يوسف عليه السّلام لم يشأ تأنيب الإخوة والتّثريب

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٤٩١ .

(٢) تفسير الطّبري ١٣/٤٧ وتفسير ابن كثير ٢/٤٩١ .

(٣) تفسير الطّبري ١٣/٤٧ .

(٤) سورة يوسف ٤ .

(٥) تفسير الطّبري ١٣/٤٦ وتفسير ابن كثير ٢/٤٩١ .

عليهم حسب وعده لهم فإنّه عليه السّلام إنّما أشار إلى السّجن بالذّات لأنّ بشائر الخير جاءته عليه السّلام قبل أن يخرج من السّجن حينما طلبه الملك كي يستخلصه لنفسه بعد ثبوت براءته عليه السّلام.

وكما مسّ عليه السّلام حاله مسّاً خفيفاً وما عانى بَيْنَ وقت الرّؤيا ووقت تعبيرها مسّ مسّاً خفيفاً حال الأهل فالله تعالى هو الّذى جاء بهم من البادية إلى الحاضرة ومن شظف العيش إلى رغده، ومسّ مسّاً خفيفاً حال إخوته فالشّيطان الرّجيم هو الّذى أفسد ما بينه عليه السّلام وبين إخوته الّذين ألقوه فى غيابة الجبّ.

ولمّا كان الفضل لله تعالى أوّلاً وآخراً والشّكر له جلّ وعلا مسيّر الأمور كلّها فى لطف، مقدّر الأشياء كلّها فى حكمة دامغة وحجّة بالغة، فإنّ يوسف عليه السّلام يشير إلى هذه المعانى النّبيلة فى حقّ الذّات العليّة. إنّ الله سبحانه وتعالى هو اللّطيف لما يشاء، وهو جلّ وعلا العليم الّذى لا يخفى عليه شيءٌ فى الأرض ولا فى السّماء، الحكيم الّذى تتّسم بالحكمة كلّ أقواله جلّ وعلا وأفعاله وحكمه وقضائه وتدبيره وكلّ شيءٍ يريده الله تعالى ويقضى به، لا رادّ لقضائه جلّ وعلا ولا معقّب لحكمه.

ومن البيّن مجيء القول على لسان يوسف عليه السّلام : ﴿ربّ﴾ مرّتين اثنتين. وقد عرفنا دلالة لفظ الرّبّ فى القرآن الكريم على معانى الخصوص وتربية الله تعالى عباده بالنّعم والآلاء ووجوب قيام العباد بالشّكر للمنعم جلّ وعلا.

وإذا كان الكلام الّذى يخصّ الذّات العليّة كبيراً فى الآية الكريمة، فإنّ الآية الكريمة التّالية مختصّةٌ بالذّات العليّة وحدها.

رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾

يناجى يوسف عليه السّلام ربّه جلّ وعلا قائلا : يا ربّ، يا من آتيتنى من فضلك وأعطيتنى من الملك وعلّمتنى من تأويل الأحاديث وتعبير الرّؤى، أنت فاطر السّماوات والأرض وموجدهما على غير مثالٍ سابق، أنت متولّ أمورى كلّها فى الدّنيا والآخرة. أسألك حينما تكتب علىّ الموت أن تتوفّانى مسلماً لك يا ربّ العالمين وأن تلحقنى بالصّالحين من المرسلين والنّبيّين الّذين أنعمت عليهم.

والحقيقة أنّ النّصّ على إيتاء الله تعالى يوسف عليه السّلام من الملك، ومجيء لفظ العرش في الآية الكريمة السّابقة وذلك في القول : ﴿ورفع أبويه على العرش﴾ والعرش كما عرفنا سرير الملك يصحّ أن نفهم منهما أنّ يوسف عليه السّلام من الجائز أن يكون قد صار ملكاً للبلاد بعد وفاة الملك. والله تعالى أعلم. وقد جاء في سورة النّساء النّصّ على أنّ ربّ العزّة قد آتى آل إبراهيم عليه السّلام من لدنه ملكاً عظيماً. قال تعالى[1] : ﴿أم يحسدون النّاس على ما آتاهم الله من فضله. فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً﴾.

ومن البيّن التّواضع الجّم الّذي فطر الله تعالى عليه يوسف عليه السّلام حينما يسأل الله تعالى أن يلحقه بالصّالحين.

---

(١) سورة النساء ٥٤.

(آياتٌ تعقيبيةٌ وتثبيتٌ لفؤاد المصطفى ﷺ) -
الآيـات (١٠٢ ـ ١١١)

ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾

ذلك الّذى قصصناه عليك أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم فى هذه السّورة المكّيّة الكريمة هو من أخبار الغيب الّتى نوحيها إليك فى هذا القرآن المجيد والكتاب العزيز والّتى لم تكن تعلمها من ذى قبل. وأنت أيّها الرّسول الكريم ما كنت لدى إخوة يوسف العشرة إذ أجمعوا أمرهم واتّفقت كلمتهم على التّخلّص من يوسف وهم يمكرون به عليه السّلام وذلك بإلقائه فى غيابة الجبّ.

ومع أنّ فى السّورة الكريمة الكثير من الأحداث المهّمة فإنّ الآية الكريمة تنتقي الحدث الّذى يعتبر حجر الزّاوية فى القصّة وهو المكر بيوسف عليه السّلام فإن كلّ الأحداث بعد ذلك ترتّبت على هذا المكر. هذا إلى أنّ المكر بيوسف يكاد يكون الحادث الوحيد فى القصّة الّذى أجمع على القيام به كلّ المؤتمرين.

ومن البيّن أنّ الهدف من هذا الإيحاء تثبيت فؤاد المصطفى ﷺ.

وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾

والعجيب فى أمر النّاس الّذين تدعوهم أيّها الرّسول الكريم إلى الإيمان، وفيهم أهل مكّة، أنّ أكثرهم لا يؤمنون مع حرصك الشّديد على دعوتهم إلى دين الإسلام وإخراجهم من الشّرك إلى التّوحيد.

وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾

إنّك أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم لا تسأل أهل مكّة ولا سواهم من أجر رغم أنّك تقوم بأعظم عمل وتبذل أكبر مجهود. وليس هذا القرآن إلّا عظة وتذكيراً للعالمين بأنّ ربّهم واحد وإلههم واحد.

وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾

ما أكثر الآيات فى السّماوات والأرض الدّالّة على وحدانيّة الله تعالى ومع ذلك فإنّ كفّار مكّة ومن شاكلهم يمرّون عليها وهم عنها معرضون، وعن أخذ العظة والعبرة منها غافلون. وإذا كان كفّار مكّة ومن شاكلهم يُعْرِضون عن الرّسول الكريم والقرآن

العظيم فليس من الغريب فى حقّ هؤلاء أن يُعْرِضوا عن الآيات الدّالّة على وحدانيّة الله تعالى فى السّماوات والأرض.

وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾

وما يؤمن أكثر العرب ومن شاكلهم بالله تعالى وفيما يسمّى بتوحيد الرّبوبيّة - فالله سبحانه وتعالى فى اعتقادهم هو الخالق الرّازق المحيى المميت إلى آخر تلك النّعوت - إلّا وهم مشركون فيما يسمّى بتوحيد الألوهيّة. إنّهم يعترفون بأنّ الله تعالى هو مربّيهم بنعمه وآلائه ولكنّهم يشركون مع الله تعالى غيره فى العبادة من الأصنام والأوثان وما إلى ذلك. جاء فى سورة الزّمر[1] قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿ألا لله الدّين الخالص. والّذين اتّخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلّا ليقرّبونا إلى الله زُلْفَى إنّ الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون. إنّ الله لا يهدى من هو كاذبٌ كفّار﴾.

أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾

إن كفّار مكّة ومن شاكلهم من المشركين الّذى لا يؤمنون بالقرآن الكريم، ولا يتّبعون خير الأنام ﷺ، ولا يفطنون لآيات الله تعالى الكُثْر فى السّماوات والأرض والّتى تدلّ على الرّبّ الواحد والإله الواحد، والّذين يشركون مع الله تعالى غيره فى العبادة هل أمنوا أن تأتيهم نقمة من الله تعالى تغشاهم وعذابٌ من الله تعالى يشملهم، أو تأتيهم السّاعة بغتة وتقوم القيامة فجأة وهم لا يشعرون بإتيانها وهم غير مستعدّين بالتّوحيد والأعمال الصّالحة لقيامها. إنّ على كفّار مكّة أن يستفيدوا من هذه الدّروس القرآنيّة وإنّ على الناس جميعا أن يستفيدوا من فترة الإمهال هذه بالإيمان وعمل الصّالحات وإلّا كان الأخذ أليماً والعذاب شديداً.

---

(١) الآية ٣.

قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾

تأمر الآية الكريم المصطفى ﷺ أن يقول لكفّار مكّة فى المقام الأوّل وقد أعرضوا عنه عليه الصّلاة والسّلام هذه سبيلى وهذا طريقى أدعو إلى الله تعالى وحده لا شريك له وإلى دين الإسلام الّذى بعثني الله تعالي به. على بصيرة نيّرةٍ وطريقةٍ مستقيمةٍ أنا ومن اتّبعنى ودعا بدعوتى واقتفي أثرى إلي يوم الدّين. وسبحان الله تعالى وتنزيهاً له جلّ وعلا عمّا ألحقه الظالمون به جل وعلا ممّا يتنافى مع جلال الله تعالى وعظمته. وما أنا من المشركين مع الله تعالى فى العبادة سواه ولكن من الموحّدين المسلمين لله تعالى ربّ العالمين.

وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾

محمّد بن عبدالله ﷺ ليس بِدْعاً من الرّسل وليس أوّل رسولٍ ولكنّه خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين صلوات الله تعالى وسلامه عليهم أجمعين. والله سبحانه لم يرسل الرّسل من قبل محمّد ﷺ إلاّ رجالاً وإنّ محمّداً ﷺ واحدٌ من هؤلاء الرّجال، وهم جميعاً من أهل القرى بمعنى المدن الّتى تأخذ بحظٍّ موفورٍ من الحضارة ومن الرّقيّ الفكريّ بالقدر الّذى تفهم عن الرّسول وتتجاوب مع الرّسالة. وهذه هي صفة قرية مكّة أو مدينة مكّة الّتى اصطفى الله تعالى منها ابنها البارّ محمّد بن عبدالله ﷺ. لقد اقتضت حكمة الله تعالى ألاّ يبعث رسله من أهل البادية الموغلين فى البداوة كالأعراب. وذلك بسبب قلّة حظّهم من الحضارة ومن الفهم وشدّة بعدهم عن الاحتكاك بالنّاس والتّعامل مع الآخرين. ولهذا كان الأعراب ـ مثلا ـ أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألاّ يعلموا حدود ما أنزل الله تعالى على رسوله ﷺ بنصّ القرآن الكريم. إنّ على كفّار مكّة ومن شاكلهم أن يشكروا لله تعالى نعمه وآلاءه وأن يبادروا إلى اتّباع الرّسول النّبيّ الأمّيّ وأن يسيروا

فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة المكذّبين السّابقين من أمثالهم وقد أهلكهم الله تعالى كيلا يكون مصيرهم مشابهاً لمصير أولئك. وإنّ عليهم أن يعلموا أنّ دار الآخرة خيرٌ للّذين اتقوا الله تعالى فى السّرّ والعلن فعليهم أن يستعملوا عقولهم استعمالاً صحيحاً وإلاّ كانت العاقبة سيّئةً والعياذ بالله.

حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾

الآية الكريمة تسليةٌ مباشرة للمصطفى ﷺ وتثبيتٌ مباشرٌ لفؤاد المصطفى ﷺ وللفئة المؤمنة فى مكّة القليلة العدد آنذاك. وهي وراء ذلك تهديدٌ لكفّار مكّة ومن شاكلهم إن لم يستعملوا عقولهم استعمالاً صحيحاً ويتوبوا إلى بارئهم جلّ وعلا توبةً نصوحاً. إنّ الآية الكريمة تقرّر أنّ سنّة الله تعالى قد اقتضت أنّ اليأس إذا تسلّل إلى رسل الله تعالى وتمكّن من نفوسهم وظنّوا أنّهم قد كُذِبوا وأيقنوا أنّ قومهم منصرفون عنهم ومعرضون جاءهم نصر الله تعالى، فينجّى الله تعالى من يشاء من المؤمنين ويصيب الله تعالى بعذابه القوم المجرمين. وأولئك المجرمون لا يستطيعون دفع عذاب الله تعالى ولا صرفه، كما لا يستطيع أولياؤهم من دون الله تعالى أن يدفعوا العذاب عنهم أو يصرفوه.

وإنّ من ألطف ما نودّ التّنويه به والإشارة إليه مجيء جملة: ﴿جاءهم نصرنا﴾ والمعروف أنّ جملة ﴿جاء﴾ لا تستعمل فى القرآن الكريم إلاّ فى الدّلالة على القرب. وكأنّ هذه الآية الكريمة تذكّرنا بقول الحقّ جلّ وعلا فى سورة الأعراف[1]: ﴿إنّ رحمة الله قريبٌ من المحسنين﴾ ومن البيّن أنّ الآية الكريمة بمثابة البشارة للمصطفى ﷺ بأنّ نصر الله تعالى قريبٌ جداً. وقد جاء بحمد الله تعالى ومنّه نصر الله تعالى والفتح.

---

(١) الآية ٥٦.

لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ
حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ
وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

تقرّر آخر آيات السّورة الكريمة أنّ فى قصص المرسلين السّابقين عبرةً لأولى الألباب، وعظةً لأصحاب العقول السليمة والأفكار الرّاجحة. وما أكثر الدّروس المستفادة من قصّة يوسف عليه السّلام الّتى تعتبر أطول قصّةٍ فى القرآن الكريم تتعلّق بواحدٍ من النّبيّين، هو يوسف عليه السّلام الّذى يعتبر المحرّك الحقيقيّ لكلّ أحداث القصّة فى أثناء حضوره وغيابه على السّواء. والقرآن الكريم وقصصه ما كان حديثا يُفْتَرَى ولا حكايةً تُخْتَلَق. وهذا القرآن الكريم هو تصديق الّذى تقدّمه من كتب سماويّة وسبقه من وحي، وتفصيل كلّ شيءٍ فى أمور الدّين فى المقام الأوّل. وهو هُدىً من الضّلالة، ورحمةٌ لقوم يؤمنون بالله تعالى ربّاً، وبالقرآن الكريم إماماً، وبمحمّد ﷺ رسولاً، وبالإسلام ديناً. وإنّما ختمت الآية الكريمة والسّورة الكريمة بالنّصّ على أنّ القرآن الكريم رحمةٌ للمؤمنين لأنّهم هم المستفيدون حقّاً من الدّروس القرآنيّة، ولأنّهم الثّمرة اليانعة النّاضجة لمنهج القرآن الكريم الّذى يربّى الأفراد والجماعات والأمم، والّذى يهديها إلى الطّريق الّذى هو أسلم، والصّراط الّذى هو أقوم. وإذا كانت الآية الكريمة تتحدّث عن القرآن الكريم فإنّها تذكّر بالحديث عن القرآن الكريم فى أوّلها. وهذا الحديث نوعٌ من الرّباط بين أوّل السّورة الكريمة وآخرها.

ثانيًا

سُورَةُ الرَّعْدِ

سُورَةُ الرَّعْدِ

مدنية ١٣ — آياتها ٤٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓرٰ ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ
وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ
عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ
يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ
رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ
وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ
ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ
قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ
وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ
فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾
۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ
جَدِيدٍ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ
فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن
قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ
وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا
أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ۗ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ
﴿٧﴾ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ
وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ
وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ
الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ
بِالنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ
مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ
وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن
وَالٍ ﴿١١﴾ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا
وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ
وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا
مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴿١٣﴾

لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا
كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ
إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا
وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿١٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ
نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى
ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۚ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ
عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ أَنزَلَ مِنَ
ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ
وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ
يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا
يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾
لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ
لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ
أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾

۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ
أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ
﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ
وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ
وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ
بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا
وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ
عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ
﴿٢٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ
أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ
وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا۟
بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ
مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ
قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾

ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ
مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ
لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ
قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾
وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ
بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟
أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ
وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ
مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ
عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟
لِلَّهِ شُرَكَآءَ ۚ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم
بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ
ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ
ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾

۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ
أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى
ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ
بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ
أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾
وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا
جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ
أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ
لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾
يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾
وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ
ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا
مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ
ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ
يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾

وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ
شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾

بين يدي التفسير

(على الناس أن يؤمنوا بآيات الكتاب العزيز وبآيات الله تعالى في السماوات والأرض)

الآيـات (١ ـ ٧)

تبدأ السورة الكريمة بحروفٍ مقطّعةٍ فريدةٍ في طبيعتها : ﴿المر﴾ ويأتي بعد الحروف المقطّعة الانتصار للقرآن الكريم على عادة السّور الّتي تبدأ بالحروف المقطّعة. والقرآن الكريم آياتٌ بيّناتٌ غايةٌ في السّموّ والرّفعة. وهذا الكتاب العزيز الّذي أُنزل إلى المصطفى ﷺ من ربّه جلّ وعلا هو الحقّ فعلى النّاس أن يؤمنوا بذلك. وإنّ الله تعالى الّذي أنزل من السّماء الكتاب العزيز على عبده في الأرض هو الّذي رفع السّماوات بغير عَمَدٍ نراها ولكنّها بإرادة الله تعالى مرفوعة هي والأرض بما يسمّيه العلم الحديث بالجاذبيّة. ثمّ استوى جلّ وعلا من السّماوات المنظورة استواءً يليق بجلاله وعظمته على العرشِ غير المنظور. ومن متعلّقات السّماوات الشّمس والقمر اللّذان يجريان لأجلٍ مسمّىً هو يوم القيامة. والله تعالى يدبّر الأمر من السّماء إلى الأرض ويفصّل الآيات لعلّ النّاس بلقاء ربّهم يوقنون. ولمّا كان البعث بعد الموت والحساب والجزاء من الغيب كان بحاجةٍ إلى درجة اليقين الّتي أومأت إليها الآية الكريمة في آخرها. والإيقان بالبعث معناه العمل من أجل يوم القيامة انطلاقاً من إفراد الله تعالى بالعبادة. إنّ الله تعالى مستحقّ للعبادة وحده لا شريك له لأنّه خالق كلّ شيءٍ ابتداءً بالسّماوات والأرض. وإذا كان من حظّ السّماوات آيةٌ كريمةٌ واحدة فإنّ من حظّ الأرض آيتين كريمتين بسبب علاقة الإنسان الوثيقة بالأرض. وأولى الآيتين الكريمتين تتحدّث عن الخطوط الأرضية العريضة الّتي تحتاج إلى استعمال الفكر بشأنها استعمالاً صحيحاً. فالله تعالى مدّ الأرض وجعل فيها الجبال الرّواسي والأنهار الجارية وجعل فيها من كلّ الثّمرات زوجين اثنين، ذكراً وأنثى وجعل اللّيل يلبس النّهار. وأخرى الآيتين الكريمتين تتحدّث عن الخطوط الأرضيّة الدّقيقة الّتي يدركها العقل السّليم بسهولةٍ ويسر. إنّ في الأرض قطعاً متجاوراتٍ مختلفات، وجنّاتٍ من أعنابٍ وزرعٍ ونخيلٍ صنوانٍ وغير صنوان. ويومىء النّخيل الصّنوان الّذي يجمعه أصلٌ واحد وغير الصّنوان الّذي تنفرد فيه كلّ نخلةٍ بأصلها إلى الصّفة الغالبة على السّورة الكريمة وهي الجمع في نسقٍ بين الصّفات المتقابلة كالسّماوات والأرض واللّيل والنّهار وما إلى ذلك. والعجيب في هذه الأنواع من النّبات أنّها تُسْقَى بماءٍ واحد ! ثمّ إنّ ربّ العزّة فضّل ثمر بعضها على ثمر البعض الآخر في التناول والأكل.

ويلفت النّظر بشأن التّذييل فى الآيات الكريمات الأربع الأول الحثّ على الإيمان والإيقان والتّفكّر واستعمال العقل استعمالاً صحيحاً. وما أروع التّلاحم بين معنى كلّ آيةٍ كريمةٍ وبين التّذييل. والعجيب حقّاً بشأن كفّار مكّة أنهم عملوا بعكس تلك التّعاليم. إنّهم استبعدوا أن يعودوا يوم القيامة خلقاً جديداً بعد أن غدوا تراباً وعظاماً بالموت. إنّ أولئك هم الّذين كفروا بربّهم جلّ وعلا، والأغلال ستكون فى أعناقهم وأيديهم يوم القيامة والسّلاسل فى أرجلهم. وهم أصحاب النّار يخلدون فيها. والعجيب أيضاً بشأن كفّار مكّة أنّهم يستعجلون المصطفى ﷺ بالسّيئة قبل الحسنة، والعذاب قبل المغفرة، والبلاء قبل العافية وهم الّذين يعلمون جيّداً العقوبات المنكّلات الّتى حلّت بالمكذّبين السّابقين والّتى كانت من الشّهرة إلى الحدّ الّذى كانت معه بمثابة المثال الّذى يرتدع به الآخرون. وبقصد تثبيت فؤاد المصطفى ﷺ يجىء خطاباً له عليه الصّلاة والسّلام مرّتين اثنتين هذا القول: ﴿إنّ ربّك﴾ إنّ ربّك أيّها الرّسول الكريم لذو مغفرة للنّاس مع ظلمهم، وإنّ ربّك أيّها النّبىّ العظيم لشديد العقاب فعلى كفّار مكّة ومن شاكلهم أن يأخذوا حذرهم. والعجيب أيضاً بشأن كفّار مكّة أنّهم وهم أئمّة البيان يعرضون عن معجزة القرآن الكريم البيانيّة ويطلبون آياتٍ أخرى ماديّة تقلّ عن القرآن الكريم فى مجال الإقناع وتحصرها حدودٌ ثلاثة من الزّمان والمكان والفئة المحدودة العدد الّتى تشاهدها. إنّ السّياق يخبر المصطفى ﷺ بأنّ ربّ العزّة جعل لكلّ أمّةٍ هادياً وبعث فيها رسولاً قبل أن يأخذ جلّ وعلا تلك الأمّة المكذّبة بالعذاب. وإنّ محمّداً ﷺ هو هادى هذه الأمّة بإذن الله تعالى إلى سبيل الهدى والرّشاد.

(الله تعالى هو عالم الغيب والشهادة وهو الكبير المتعال)

الآيات (٨ ـ ١٦)

آيات هذا القسم تدور حول تقرير علم الله تعالى المحيط وقدرته جلّ وعلا المطلقة فهو سبحانه وتعالى المستحقّ أن يفرد بالعبادة. إنّ الله تعالى يعلم ما تحمل كلّ أنثى من النّاس والحيوان وما تغيض الأرحام وتنقص من مدّة الحمل وما تزداد فتكمل مدّة الحمل أو تزيد عن المدّة الطّبيعيّة. وكلّ شىءٍ عنده جلّ وعلا بمقدار، بقدرٍ واحدٍ لا يتجاوزه، وموعد محدّدٍ لا يخلفه. وهو جلّ وعلا عالم كلّ ما غاب عنّا نحن البشر وما نشاهده، الأكبر من كلّ كبير، المتعالى على كلّ شىءٍ بقوّته وقهره. ومن مظاهر استواء الغيب والشّهادة فى علم الله تعالى استواء علم الله تعالى بسرّ القول وجهره، الاستخفاء بالعمل

ليلاً والاستظهار بالعمل نهاراً. ومن مظاهر قدرة الله تعالى الملائكة الّتي يعقب بعضها بعضاً ليلاً ونهاراً من بين يدي النّاس ومن خلفهم. إنّ لكلّ إنسان بالنّهار ملكاً يحفظه بأمر الله تعالى من أمامه وآخر من خلفه، وباللّيل ملكاً آخر يحفظه من أمامه وآخر من خلفه. ومن مظاهر قدرته جلّ وعلا أنّه عزّ وجلّ وهو الّذى قد أحاط بكلّ شيءٍ علماً لا يغيّر نعمةً أنعمها على قوم حتّى يغيّروا ما بأنفسهم بأن يكفروا بنعمة الله تعالى وذلك على غرار كفر أهل مكّة بمحمّدٍ ﷺ فسلبهم الله تعالى تلك النّعمة وحباها أهل المدينة المنوّرة. والله سبحانه وتعالى إذا أراد بقومٍ سوءاً فلا مردّ لما أراد بهم من سوء وليس لهم من دونه جلّ وعلا من ولّيٍ ولا ناصر. وإنّ الله سبحانه وتعالى الّذى خلق السّماوات وهيّأ الأرض لسكنى الإنسان وجعل من الماء كلّ شيءٍ حيّ هو الّذى يريكم يا أهل مكّة ويا أيّها النّاس البرق الّذى يلمع من خلال السّحاب خوفاً من الماء إن كنتم غير مستعدّين لاستقباله، وطمعاً إن كنتم محتاجين إليه وينشيء السّحاب الموقر بالماء الثّقيل إنشاءً. ومن البيّن علاقة البرق والسّحاب بالعين. ويبقى وراء ذلك من متعلّقات المطر الرّعد والصّواعق وعلاقتهما بالأذن واضحة. إنّ الرّعد يسبّح بحمد الله تعالى فيقول سبحان الله وبحمده وكذلك تسبّح الملائكة من خيفته جلّ وعلا وهي الّتى لا تعصى الله تعالى ما أمرها وتفعل ما تؤمر به. وإذا كانت علاقة الرّعد بالسّحاب واضحةً وكلّ ما علانا سماء، فإنّ علاقة الملائكة الأطهار بالسّماء كذلك واضحة. وإذا كان الرّعد يسبّح بحمد الله تعالى فإنّ الصّواعق وهي صوتٌ كالرّعدولكنّها تفوقه فى الدّرجة وفى النّار الملازمة لها يرسلها الله تعالى القادر على كلّ شيء فيصيب بها من يشاء من عباده ومنهم كفّار مكّة الّذين يجادلون المصطفى ﷺ فى الله تعالى وهو جلّ وعلا شديد المحال قويّ الأخذ للظّالمين. وإنّ صوت الرّعد المسبّح بحمد الله تعالى والملائكة من خيفته جلّ وعلا والصّواعق الّتى يرسلها جلّ وعلا مرشّح كلّ ذلك للحديث عن دعوة الحقّ وصوت الصّدق ونداء الإسلام. إنّ لله تعالى دعوة الحقّ وشهادة الصّدق وكلمة التّوحيد وقول لا إله إلاّ الله. إنّ الكافرين لا يدعون الله تعالى القادر على كلّ شيءٍ ويدعون الآلهة العاجزة الّتى لا تستجيب لهم إلاّ استجابةً كاستجابة الماء فى قاع البئر لذلك الأحمق المجنون الّذى يقف على شفير البئر ويدعو الماء كي يرقى بذاته إلى كفّيه ليبلغ فاه وماهو ببالغه. إنّ الوسيلة الصّحيحة للحصول على الماء استعمال الوسيلة الصّحيحة وهي الدّلاء. وإنّ الوسيلة الصّحيحة للحصول على النفع ودفع الضّرّ استعمال الوسيلة الصّحيحة وهي عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، وإلاّ كان الدّعاء ضلالاً فى ضلال. ولمّا كان السّجود لله تعالى ممثّلاً للعبادة فى قمّتها فإنّ السّياق يقرّر أنّ لله تعالى يسجد كلّ

من في السّماوات والأرض طوعاً في حقّ المؤمن وكرهاً في حقّ غير المؤمن الّذي لا يستطيع إلاّ أن يخضع لمشيئة الله تعالى، كما يسجد لله تعالى ظلال المؤمنين والكافرين بالغدوّ والآصال وهي الأوقات الّتي يطول فيها الظّلّ ومن باب الأولى الأوقات الّتي يتقلّص فيها الظلّ ويفيء. ولأنّ إصرار أهل مكّة على الشّرك ربّما أومأ إلى أنّ لدى القوم شبهةً تحملهم على ذلك فإنّ السّياق يطرح على القوم مجموعةً من الاسئلة عن طريق المصطفى ﷺ يتبيّن منها أنّ القوم متعنّتون. إنّ ربّ العزّة يأمر المصطفى ﷺ أن يسأل كفّار مكّة: ﴿من ربّ السّماوات والأرض﴾ والجواب معروفٌ ولا جواب غيره. إنّه الله تعالى. ثمّ يُنكر على القوم ويوبّخون بسؤالهم عن السّبب في اتّخاذهم أولياءَ من دون الله تعالى الأصنامَ الّتي لا تملك لهم نفعاً ولا ضرّاً. ولا سبب لاتخاذ الأولياء، وذلك معناه أن القوم آثروا العمى على الهدى والظّلمات على النّور. وينكر السّياق على القوم ويوبّخهم حينما يفضّلون العمى على الإبصار والظّلمات على النّور وهما لا يستويان أصلاً فكيف يفضّل العمى والظّلمات. أم أنّ القوم جعلوا لله شركاء لأنّ الشّركاء خلقوا كخلق الله تعالى فتشابه عليهم خلق الشّركاء وخلق الله تعالى. إنّ كفّار مكّة قبل سواهم يعلمون أنّ الله تعالى هو خالق كلّ شيءٍ فعليهم إذن أن يعلموا أنّ الله تعالى هو الواحد القهّار. ولمّا كان السّحاب الثّقال يخرج منه بإرادة الله تعالى النّار في هيئة الصّواعق والماء في هيئة المطر فإنّ خروج الضّدّين من الشّيء الواحد خير مرشّح لمجيء المثلين المتضادّين بعد ذلك، المائيّ والناريّ.

﴿مثلان: مائي وناري﴾
الآية رقم (١٧)

تقرّر الآية الكريمة أنّ الله سبحانه وتعالى أنزل وحده لا شريك له من السّماء ماءً عذباً فراتاً فسالت أوديةٌ بقدرها من السّعة والضيق فاحتمل السّيل بإرادة الله تعالى فوق ظهره اضطراراً زبداً رابياً وغثاءً نامياً. ومن البيّن أنّ الصّراع بين الماء والزّبد مثالٌ للصّراع بين الحقّ والباطل، الخير والشّرّ، الإيمان والكفر. ومن هنا فُهِم أنّ ثمّة هدفاً بعيداً وراء الماء والأودية. إنّ الماء النّازل من السّماء يراد به القرآن الكريم النّازل هو الآخر من السّماء في أسمى طرق الوحي لأنّ الماء إذا كان غذاء الأجسام فإنّ القرآن الكريم غذاء الأرواح. وإنّ الأودية المختلفة الأحجام والاستعداد لاستقبال ماء السّماء واستيعابه يراد بها القلوب المختلفة الاستعداد لاستقبال القرآن الكريم، والاهتداء بنوره. وكما احتمل السّيل زبداً رابياً طافياً فوق الماء وهو جوهر احتمل المعدن السّائل في